مسابقة العلاّمة

# الشهيد مرتضى مطهري قدس سره

# قدوة الشباب (٢)

أسئلة وأجوبة من وحي حياة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والإمام علي عليه السلام


التعبئة التربوية
حزب الله
المقاومة الإسلامية في لبنان

مركز نون للتأليف والترجمة

شبكة المعارف الإسلامية
almaaref.org
الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

مسابقة العلاّمة

الشهيد مرتضى مطهري قدس سره

# قدوة الشباب(٢)

## أسئلة من وحي حياة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والإمام علي عليه السلام

**الإعداد والإخراج الالكتروني**
www.almaaref.org

**الكتاب:** قدوة الشباب أسئلة من وحي حياة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والإمام علي عليه السلام

**المؤلف:** الشهيد العلّامة مرتضى مطهّري قدس سره

**الناشر:** جمعية المعارف الإسلاميّة الثقافية

**الطبعة** الأولى شباط ٢٠١٣م - ١٤٣٤ هـ

جميع حقوق الطبع محفوظة ©

مسابقة العلاّمة

# الشهيد مرتضى مطهري قدس سره

## قدوة الشباب(٢)

أسئلة من وحي حياة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم

والإمام علي عليه السلام

مركز نون للتأليف والترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾

# الفهرس

**الفهرس**..... ٥

**مقدمة** ..... ٧

**الباب الأول**

**أسئلة من كتاب محمد ﷺ وعلي عليه السلام** ..... ٩

البناء ..... ٣٧

النزاع والجهاد..... ٣٨

معجزة غير القرآن ..... ٤٣

كراهة البطالة ..... ٦٦

الأمانة ..... ٦٦

مكافحة الظلم ..... ٦٧
القيادة والإدارة والمشورة ..... ٧١
النظم والانضباط ..... ٧٢
مكافحة نقاط الضعف ..... ٧٤
المسؤولية نوعان..... ٧٥

## الباب الثاني

**أسئلة من كتاب الفكر الإسلامي وعلوم القرآن ..... ٨٩**

# مقدمة

لقد اجتمعت في مؤلفات العلامة الشّهيد مرتضى مطهري قدس سره ميّزات عدّة، أهمّها الأصالة الإسلاميَّة التي تتغذَّى من فهمه العالي لأسس الدّين الإسلامي، ومن إدراكه للآفاق المعرفيَّة والروحيَّة والاجتماعيَّة الواسعة التي فتحها الإسلامُ للإنسانيَّة. والحقُّ يُقال، بأنَّ الاطِّلاع على الأثر الكبير الذي تركَهُ هذا الفكر الثّري والمتين والمقدّم بأسلوبٍ رائعٍ وببيان جذَّاب، بين الشباب والمثقفين، يوقفنا على حقيقة الفائدة التي يمكن أن نحقِّقَها من خلال إعادة نشر هذا الفكر بأكثر من طريقةٍ وقالب.

وهذا الكتاب، والذي هو عبارةٌ عن مجموعةٍ من النُّصوص المقتطفة من فكر الشَّهيد مطهَّري قدس سره، والتي تضيء على جوانب مهمّةٍ من سيرة حياة الرّسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم والإمام علي عليه السلام في أقوالهما وأفعالهما وتطبيقهما للقرآن الكريم، يشكِّل إسهاماً جيّداً في تعريف فئةٍ من الشَّباب على هذين العظيمين اللذين قام الدين الإسلامي بصبرهما وجهادهما.

ففي هذا الكتاب، تم طرح مجموعةٍ من الأسئلة الموجَّهة للشَّباب في المدارس والمهنيات، ليصار إلى الإجابة عليها من خلال نصوصٍ مختارةٍ من كتابين للشَّهيد مطهَّري قدس سره من «**سلسلة تراث وآثار الشهيد مرتضى مطهري**»[1]، وهما: محمد وعلي (النبي والإمام)، والفكر الإسلامي وعلوم القرآن الكريم. على أنَّنا قمنا بنقل النُّصوص كما هي من دون تصرُّفٍ يُذكر في المتن، اللهم إلا للضَّرورة في مواضع يسيرة.

ونحن في مركز نون للتأليف والترجمة، نسأل الله سبحانه وتعالى أن تعمّ الفائدة على الشّباب الرساليين ببركة هذا الفكر النورانيّ للشّهيد العلامة مرتضى مطهري قدس سره.

مركز نون للتأليف والترجمة

(١) الصادرة عن دار الإرشاد، ط ١، بيروت، ٢٠٠٩.

## الباب الأول:

# أسئلة من كتاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعلي عليه السلام

**بسم الله الرحمن الرحيم**

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾[1].

إنّ أحد منابع المعرفة التي ينبغي على كل مسلم أن يستقي منها لاستكمال صلاحه وتصحيح نظره هو السيرة المباركة لرسول الله ﷺ. وقبل الدخول في الموضوع، لا بدّ من إيراد مقدمة قصيرة أذكركم بها، وهي أنّ واحدة من نعم الله علينا - نحن المسلمين -، ومفخرة من مفاخرنا على أتباع الأديان الأخرى، هي أن قدراً كبيراً من أقوال الرسول وأحاديثه المتواترة والموثوق بها ما زالت مصونة ومتداولة بيننا. وهذا ما لا يستطيع أن يدعيه أتباع الأديان الأخرى، إذ ليس بإمكانهم أن يقولوا إنّ العبارة الفلانية، مثلاً، هي ما قاله موسى عليه السلام أو عيسى عليه السلام فعلاً. صحيح أنّ بين أيدينا الكثير ممّا ينسب إليهما، ولكن لا أحد يستطيع أن يقطع بذلك.

والأمر الآخر هو أنّ حياة نبينا واضحة ومدعومة بالإسناد الموثقة، حتى إنها في دقائقها وجزئياتها ليست خافية علينا، ولا

(١) سورة الأحزاب، الآية ٢١.

يعتورنا الشك في صحتها. وهذا ما لا يصدق على أي نبي آخر. إنّنا نعرف سنة ولادته، بل يوم ولادته، وفي أي يوم من الأيام كان ذلك، ونعرف فترة رضاعته، والزمن الذي أمضاه في الصحراء، وفترة ما قبل بلوغه، وكذلك الأسفار التي قام بها إلى خارج الجزيرة، والأعمال التي قام بها قبل أن يبعث نبياً، وفي أي سن تزوج، وما رزق به من الأولاد، والذين توفوا قبل، وأعمارهم وتواريخ وفياتهم، وأمثال ذلك، حتى يصل إلى مرحلة البعثة والنبوة، وهي مرحلة أجلى وأوضح، لأنّها كانت حدثاً ضخماً سجلت بكل دقائقها: من أول من آمن به، ومن كان الثاني، ومن كان الثالث. حتى آمن فلان، وما هي الأحاديث التي جرت بينه وبين الآخرين؟.. ما كانت أعماله، وكيف كانت سيرته؟.. كل ذلك واضح في أدق تفاصيله.

أما النبي عيسى عليه السلام وهو أقرب الأنبياء العظام وأصحاب الشرائع إلينا ـ فإنّه لولا تأييد القرآن ولولا اعتقاد المسلمين بصدق ما جاء عنه في القرآن وأنّه نبي إلهي حقيقي، لما كان بالإمكان معرفته وإثبات وجوده في العالم. إنّ المسيحيين أنفسهم يعتقدون أنّ تاريخ ميلاد المسيح تاريخ موضوع، وأنّ القول بأنّه قد مرّت الآن ١٩٧٥ سنة على ميلاده لا دليل عليه وليس في التاريخ ما يثبته، بل قد يكون ميلاد المسيح قد حدث قبل ذلك بثلاثمائة سنة، أو بعد ذلك بمائتين أو ثلاثمائة سنة. ولكنّنا إذا قلنا قد مضى على هجرة نبينا ١٣٩٥ سنة قمرية أو ١٣٥٤ سنة شمسية، فإنّ

ذلك لا يعتوره أدنى شك. هنالك بعض المسيحيين ـ وأعني بهم المسيحيين الجغرافيين لا المسيحيين المؤمنين ـ ينكرون أصلاً إن كان أحد في العالم باسم المسيح، ويقولون: إنّ حكاية المسيح أسطورة مصطنعة. فهؤلاء يشكون حتى في وجود المسيح أصلاً. بديهي أنّ هذه المزاعم مردودة في نظرنا، لأنّ القرآن أكد وجود عيسى عليه السلام ولمّا كنّا نؤمن بالقرآن؛ فلا يمكن أن نشك بأن عيسى عليه السلام كان نبياً من أنبياء الله المرسلين. إنّ مسائل من قبيل من هم حواريو عيسى؟ ومتى ظهر الإنجيل بصورة كتاب؟ وكم إنجيلاً هناك؟ تعتبر مسائل غامضة عند المسيحيين. أما نحن المسلمين فإنّ مصادر أقوال نبينا ومصادر سيرته بينة لا يعتورها أي غموض أو إبهام، ويمكن الاعتماد عليها اعتماداً قطعياً، لا ظنياً.

إنّ ما يلزمنا أن نستفيده من حياة نبينا هو ما في أحاديثه، وما في سيرته كليهما. أي إنّ أقواله وأفعاله ينبغي أن تكون هادية لنا في مسيرتنا وسنداً لنا نعتمد ونتكئ عليه.

في البدء سوف أتكلم عن الأقوال النبوية الشريفة من ثم أتناول أفعاله صلى الله عليه وآله وسلم بالدرس والتعليق.

أهم ما يتعلق بأقوال العظماء وأحاديثهم هو أنّها تتضمن أموراً دقيقة مطلوب من الأفراد إدراكها، وعلى الأخص أقوال نبينا الكريم التي قال عنها: «**لقد أعطيت جوامع الكلم**»[1] أي إنّ الله

(١) أمالي الشيخ الطوسي، ج٢، ص٩٨-٩٩.

قد وهبني القدرة على أن أضع في مقولة قصيرة عالماً من العلوم. وقد أظهر النبيﷺ ذلك في أفعاله أيضاً. كان الجميع يسمعون كلام الرسول الكريم، ولكن.. هل كان الجميع قادرون على الوصول إلى أعماق كلامه كما ينبغي؟ لا.. أبداً. ولعلّ خمسة وتسعين بالمائة من السامعين، أو أكثر من ذلك، لم يكونوا يبلغون مداها. إنّ النبي نفسه قد تنبأ بذلك، فقال في الحديث المعروف الذي ذكرته الكتب المعتبرة، مثل «**الكافي**» و«**تحف العقول**» ونقله الرواة الشيعة والسُّنة: «**نضَّر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها، وبلّغها من لم يسمعها**»[١].

## ١. ماذا يعني الرسولﷺ بقوله: «وربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه»؟

عن النبيﷺ أنه قال: «**فربّ حامل فقهٍ غير فقيهٍ، وربّ حامل فقهٍ إلى من هو أفقه منه**»[٢].

ففي «**رب**» هذه إشارة إلى المستقبل الذي يكون وسيلة إيصال الحديث إليه، هذا الشخص الذي قد يحمل قولاً عميق المغزى؛ ولكنّه نفسه ليس بمستوى العمق الذي ينطوي عليه ذلك الكلام. وقد تجد أُناساً يحفظون تلك الأقوال الفقهية[١] التي لا يستطيعون بأنفسهم بلوغ أغوارها، فينقلونها إلى أناس آخرين أدق منهم

(١) الكافي، ج ١، ص٣-٤.

(٢) الكافي، ج ١، ص٤٠٣.

فهماً وأعمق إدراكاً، فيكون هؤلاء أقدر على أن يستخلصوا من تلك الأقوال معاني وأسراراً لم يكن يفهمها الناقل. ولهذا نلاحظ أنّ أقوال الرسول ﷺ تكتشف فيها - كل حين - أعماقٌ أخرى، ولا أقول تزداد عمقاً. لقد تحدث رسول الله ﷺ: عن موضوعات شتى، كالأخلاق، والفقه، والزهد، والمعارف، والفلسفة. إنّ تاريخ العلوم الإسلامية يكشف بجلاء أنّ المفسرين الذين جاؤوا في أدوار متأخرة كانوا أقدر فعلاً على التوصل إلى المعاني الحقيقية في أحاديث الرسول ﷺ. إن علماء القرن الأول والثاني لم يبلغوا مبلغ علماء القرن الثالث في الوصول إلى أعماق أحاديثه ﷺ وعلماء القرن الثالث كانوا أقل وصولاً من علماء القرن الرابع، وهكذا.. وها هنا موطن إعجاز الرسول ﷺ. بديهي - كما تعلمون - أنّ أوصياء النبي الكريم الأئمة الأطهار عليهم السلام يختلف حالهم، وكلامهم من كلام الرسول ﷺ. وإنّما ينسحب قولنا على الأفراد العاديين لا على الأئمة المعصومين. فإذا أخذنا فقهنا كمثال، نرى أنّ الشيخ مرتضى الأنصاري - الذي جاء متأخراً بعد الشيخ الطوسي والشيخ المفيد والشيخ الصدوق بتسعمائة سنة - أقدر منهم على شرح أقوال الرسول ﷺ وتفسيرها.

**٢. فهل يعني هذا أنّ الشيخ الأنصاري كان أنبغ من الشيخ الطوسي؟**

كلّا، بل إنّ علم زمانه كان أوسع من علم زمان الشيخ الطوسي.

فتقدم العلوم يمكن الوصول إلى أعماق أبعد الأحاديث الشريفة. كذلك الأمر سيكون في المستقبل. ففي القرن أو القرنين المقبلين قد يظهر أشخاص يستطيعون شرح أقوال الرسول خيراً ممّا شرحها الشيخ الأنصاري بالنظر لتمكنهم من الغوص أعمق في أسرارها ومعانيها.

وكما أنّ لكلام الرسول معنى واضحاً ومعاني وأسراراً أعمق، كذلك أفعاله لها معانيها التي يجب التعمق فيها.

### ٣. هل تغيـرت حياة النبيﷺ وتصرفاته بعد أن سيطر على الحجاز؟

وأقول، ليست حياة علي هي وحدها التي نقضتها، بل إنّ حياة محمد قد نقضتها قبل ذلك. من كان محمد في أول أيام البعثة؟ ثم نتقدم قليلاً لنرى النبي في شعب أبي طالب، ومن ثم نراه يوم وفاته. إنّه في شعب أبي طالب مع رهط في صحبه محبوسين، لا يصل إليهم طعام، وليس لديهم إلّا القليل من الماء، وتعوزهم حاجات أخرى كثيرة تلح عليهم ضرورتها أحياناً إلحاحاً يحمل بعض المسلمين في الشعب ممّن كانت لهم رابطة مع علي عليه السلام أن يتسللوا تحت غطاء الليل الداجي إلى أطراف البلد حيث كانوا يتبلغون بما يحصلون عليه من طعام لا يكاد يسد رمقهم.. هذا هو النبي يوم كان في شعب أبي طالب.

هذا النبي نفسه يصل إلى السنة العاشرة من الهجرة، حيث تحسب له دول العالم حساباً، ويستشعرون الخطر من وجوده، فجزيرة العرب ليست وحدها التي تقع برمتها تحت سيطرته ونفوذه، بل إن سياسيّ العالم يتنبأون بانتشار تلك القوّة - قريباً - إلى خارج جزيرة العرب ووصولها إليهم. فالنبي بعد عشر سنوات من الهجرة، والنبي في السنة العاشرة من البعثة، هو هو لا يختلف في الحالين قيد شعرة. يحضر أعرابي من البادية - يوماً - للقاء النبي، ولكنّه عندما يراه يتلعثم رهبة من هيبة النبي، فيستاء النبي لذلك، فيأخذ الرجل بين ذراعيه ويحتضنه ويقول له: أيها الأخ، ما الذي يخيفك منّي، فأنا لست من تظن، بل أنا ابن تلك المرأة التي تحلب العنزة بيديها، وإنّي لك كالأخ، فقل ما في قلبك..! فهل استطاعت تلك القدرة والمكانة والعزة أن تغير شيئاً من روح محمد؟ لا، أبداً فمحمد وعلي مقامهما أرفع من هذا.

**٤. ما معنى الآية ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ﴾؟**

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ﴾[1] فما معنى «**ولا تعتدوا**»؟ هنا تذكر التفاسير، وكذلك الفقه، أنّ النبي ﷺ وكذلك الإمام علي عليه السلام كانا في كل الحروب يوصيان الجنود بعدم الإجهاز على الجريح من الأعداء، وبعدم التعرض للشيوخ الذين لم يشتركوا في الحرب، ولا لأطفالهم، وبعدم منع الماء عنهم ـ هذه الأعمال

(١) سورة البقرة، الآية ١٩٠.

المألوفة اليوم، وإنّه لعمل مناف للإنسانية أن يمنعوا الماء، أو أن يلقوا القنابل السامة.. إنه اعتداء وتجاوز ـ اقرأ في القرآن وصاياه بشأن كفار قريش، على الرغم من كونهم كانوا ألد أعداء الرسول ﷺ. فهم لم يكونوا مشركين وعبدة أصنام وأعداء فحسب، بل كانوا قد حاربوا النبي عشرين سنة، لم يتورعوا خلالها عن التوسل بكل ما كان يمكنهم التوسل به. إنّهم الذين قتلوا عم النبي وأعزاءه، ولشد ما آذوا النبي يوم كان في مكة وعذبوا أصحابه. وهم الذين كسروا سن النبي وشجوا جبينه. ومع ذلك ففي فترة فتح مكة تنزل سورة المائدة، آخر سور القرآن نزولاً، في الوقت الذي كان قد بقي من المشركين عدد قليل، وكانت السلطة بيد المسلمين، فتقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾[1] أي لا تتجاوزوا حدود العدل. فهل يمكن القول بأن تخطي حدود العدل جائز بعد هذا؟ أم أنّه غير جائز إطلاقاً؟ إنّ لكل شيء ميزاناً واحداً، فإذا بلغنا ذلك علينا ألّا نتعداه. فما هو هذا الحد؟ لماذا لا نحارب العدو؟ الحرب مرة تكون للتنفيس عن العقد النفسية، وهذه حرب لا تمت إلى الإسلام بصلة. ومرّة تقول: إنّك تحارب أعداء البشرية وتريد أن تزيل الأشواك عن طريق الإنسانية. فإذا رفعت الأشواك فكفّ، ولا تتعرض للأغصان التي لا أشواك فيها هذا هو الحد.

(١) سورة المائدة، الآية ٨.

## ٥. كيف يصف الإمام علي عليه السلام الرسول ﷺ في الدعوة إلى الله؟

«**طبيب دوّار بطبّه**»[١] فيشبهه بالطبيب، أي إنّ أسلوب الرسول الكريم أشبه بأسلوب الطبيب المعالج لمريض. فمن جملة خصوصيات الطبيب بالنسبة إلى مريضه أنه يترحم على حاله، كما يقول الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة: «**وإنّما ينبغي لأهل العصمة، والمصنوع إليهم في السلامة أن يرحموا أهل الذنوب والمعصية**»[٢].

والمذنبون حقيقون بالرحمة، إلا أنّ هذا لا يعني تركهم وشأنهم.. فإذا كان المريض حقيقاً بالترحم عليه، فلا تهمله، بل عليك أن تعالجه. فسلوك النبي ﷺ كان سلوك الطبيب المداوي.

ولكن ثمة فرق بين طبيب وطبيب. فهناك الطبيب الثابت، وهناك الطبيب السيار. فذاك طبيب قد افتتح عيادة جلس فيها ينتظر المرضى، فمن يراجعه يطببه ويكتب له الدواء. أما إذا لم يتطبب عنده أحد، فلا يذهب للبحث عن مرضى. غير أنّ الطبيب السيار لا يقنع بذلك بل يذهب بنفسه ليعالج المرضى.

كان النبي ﷺ يذهب بنفسه ليعالج مرضى الأخلاق والمعنويات. كان هذا ديدنه على امتداد حياته لماذا سافر إلى الطائف؟ وما

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٠٧.

(٢) م.ن، الخطبة ١٤٠.

كان دخوله المسجد الحرام إلا بحثاً عن هذا وذاك، يقرأ القرآن فيجذب الناس ويدعوهم إلى الإسلام؟ عند حلول الأشهر الحرم كانت تزداد مسؤوليته، فقد كانت القبائل العربية تقدم للحج على وفق طريقتهم في عبادة الأصنام، فكانوا يتجمعون في عرفات ومنى، وكان النبي ﷺ يستفيد من تلك الفرصة ليختلط بالناس. وكان «**أبو لهب**» يتبعه ويقول للناس: لا تسمعوا له، إنّه ابن أخي وأنا أعرفه وأعرف أنه كذّاب (العياذ بالله) إنّه مجنون، وما إلى ذلك. إلّا أنّ النّبي لم يكن ليكف عمّا كان فيه.. فلماذا كل هذا؟

يقول الإمام علي عليه السلام: إنّ سلوك النبي ﷺ كان سلوك الطبيب، الطبيب السيار لا الطبيب القابع في عيادته، لا يجيب إلّا من يسأله، ولا يرى مسؤوليته تتعدى ذلك. كلا، كان الرسول الأكرم يرى مسؤوليته أكبر من ذلك بكثير. لقد جاء في بعض الروايات أنّ بعضهم رأى المسيح عيسى عليه السلام يخرج من دار امرأة سيّئة السمعة. فسئل: يا روح الله، ما كنت تصنع في دار هذه؟ فقال: أنا طبيب وكنت في دار مريضة.. والكلام يطول.

يشير الإمام علي عليه السلام في سيرة النبي ﷺ وسلوكه في العلاج بقوله: «**قد أحكم مراهمه وأحمى مواسمه**» هل كان النبي ﷺ يعامل الناس بالحسنى أم بالخشونة؟ يقول علي: إنّه كان يعاملهم بالاثنين، ولكنّه كان يعرف موضع كل منهما، فمرة كان عنده «**المرهم**» وأخرى عنده «**الميسم**»، فالمرهم في يد، والميسم - أو

آلة الوسم المحمية – في اليد الأخرى. فحيثما أمكنت المعالجة بالمرهم كانت هي العلاج، فإذا لم يكن المرهم مجدياً وكان العضو فاسداً، كان لا بدّ من الكي أو البتر لعلاجه. إذن فثمة ظرف يقتضي الملاينة والرفق، وثمة ظرف يقتضي الشّدة والحزم، وكان النبي ﷺ يستعمل كلا في موضعه ووقته.

**٦. ما هو الحدث الذي حصل عند وفاة إبراهيم بن النبي ﷺ وما كان موقفه منه؟**

جاء في الأحاديث في كتبنا وكتب أهل السنة أنّ إبراهيم ابن رسول الله ﷺ من زوجته مارية القبطية، قد توفي وعمره ثمانية عشر شهراً، فيتأثر الرسول الكرم، الذي كان يحبه ، أشد التأثر ويبكي ويقول: إنّه على حرقة قلبه وذرفه الدموع على إبراهيم وحزنه الشديد عليه، فإنّه لا اعتراض له على قضاء الله. ويدين الحزن على قلوب جميع المسلمين لأنّ غباراً من الحزن قد غلف قلب رسول الله ﷺ المبارك. ويصادف أن تكسف الشمس في ذلك اليوم، فلا يشك المسلمون في أنّ ذلك دليل على تعاطف العالم الأعلى مع رسول الله ﷺ، أي إنّ الشمس كسفت حزناً على موت ابن رسول الله.

وانتشر هذا في المدينة، واتفق الناس على أنّ ذلك الكسوف كان بسبب حزن النبي ﷺ. وقد أدّى هذا الاعتقاد إلى زيادة إيمان الناس وتقويته، والناس لا تخلو عقولهم من التفكير في أمثال

هذه الأمـور.. ولكن ما رأي النبي نفسه؟ إنّه لا يرتضي استغلال ضعف النّاس لهدايتهم، بل يريد الاستفادة من نقاط قوتهم لذلك الهدف. إنه لا يريد أن يكون جهل الناس هو السبب في هدايتهم إلى الإيمان، لأن القرآن يقول: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾[١].

فقد يقول قائل: حسن، ما الذي ناله الناس من ذلك؟ خذ الغايات واترك المبادئ، فقد كانت النتيجة حسنة، ونحن لزمنا الصمت ولم نقل شيئاً. أمّا النبيﷺ فلم يسكت على ذلك. جاء إلى المسجد وصعد المنبر وأراح خواطر الناس، وبين لهم أنّ كسوف الشمس لم يكن من أجل موت ابنه.. إنّ من لا يريد أن يُستغلّ حتى سكوته، ينبغي أن يكون هكذا، فلماذا؟ لأنّ الإسلام لا حاجة له بمثل ذلك.

### ٧. ما معنى «يسر ولا تعسر وبشر ولا تنفر...»[٢]؟

يوصي النبيﷺ قائلاً: اعبدوا بقدر ما في أرواحكم من نشاط للعبادة. أي أدّو العبادات برغبة وميل. أما إذا أدَّيْتَ العبادات، وأقمتَ الصلاة، وأدَّيْتَ المستحبات، وقرأت القرآن، وسهرتَ اللّيل، حتى أحسست أنّ ذلك أصبح يثقل عليك وأنّك تجد فيه صعوبة، أي إنّك بدأت تحمل نفسك حملاً على ذلك، فاترك ذلك، ولا تحمل نفسك على العبادة حملاً. لأنّك بالاستمرار في حملها على ذلك

(١) سورة النحل، الآية ١٢٥.

(٢) السيرة النبوية، ابن هشام، ج ٤، ص١٠١٠.

تثير فيها بالتدرج حالة من النفور والفرار، حتى يصل بك الأمر إلى اعتبار التعبد كشرب الدواء وعندئذٍ تتولد في ذهنك فكرة سيِّئة عن العبادات. ولذلك يوصي النبي ﷺ معاذ بن جبل فيقول: «**يسِّر ولا تعسِّر وبشّر ولا تنفّر**». ثم قال ما مفاده: يا معاذ، الإسلام دين متين. فعامل نفسك بالحسنى. يا معاذ، إنّ من يظن أنّه بالتعسير على نفسه وبعدم التساهل معها يكون أسرع في بلوغ مقصده.. مخطئ، فهو لن يصل إليه. إنّ مثله مثل الراكب الذي يقصد مدينة أُخرى، فيحسب أنّه بتشديد الضرب على مطيته يكون أسرع في الوصول إليها، ولكنّه سرعان ما يجد أنّه قد جرح المطية، وأنهكها تعباً فحزنت في مكانها لا تريم. فيرى أنّه فضلاً عن كونه لم يصل إلى مقصده أصاب مطيته وأقعدها.

فمن يشتد على نفسه ويحملها فوق طاقتها، يخطئ إذا ظنّ أنّه يكون أسرع في بلوغ ما يريد، بل إنّه قد لا يصل أصلاً، وتعود روحه كالمطية الحرون من التعب، لا ترفع قدماً عن قدم.

لذلك كان رسول الله ﷺ يوصي معاذ بن جبل وغيره بأن يبشروا ولا ينفروا .. ييسر ولا يعسر. لا يكن حديثك كله عن المشكلات والصعاب، فإنّك بذلك تخيف النّاس. يقول رسول الله ﷺ: «**بُعثت إليكم بالحنفية السمحة السهلة البيضاء**»[1]. فهل في الدين تسامح؟ نعم، إن الدين سمح ومتسامح، ولكن لذلك أصوله. فكيف؟

(١) بحار الأنوار، ج ٣٠، ص٥٤٨.

يقول الدين: توضأ. ولكن هذا الدين نفسه يقول: إذا كنت مريضاً.. مصاباً بجرح وتخشى الضرر (ولا يقول إن كنت موقناً من الضرر، ولا إن كان في ضرر حتماً) من الماء، فتيمم بدل الوضوء. هذا يعني السماحة، يعني الدّين، فالدّين ليس خالياً من التسامح، بل فيه كل التسامح.

## ٨. ما هما الشرطان اللذان يجب توافرهما في من يتصدى للدعوة إلى الدين؟

ومن المسائل الأخرى في الدعوة للدين قول القرآن: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾[١]. هذه آية من الآيات التي تقصم ظهر الدعاة إلى الدّين والمبلغين لرسالات الله.

تبين الآية أنّ ثمة شرطين يجب توافرهما في من يتصدى للدعوة إلى الدين.

الأول: هو أنهم يخشون الله، قلوبهم ملأى بالخشية من الله. ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[٢]. لقد جاء في دعاء النبي ـ كان النبي ﷺ يدعو به ـ: « **اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معصيتك، ومن طاعتك ما تبلغنا به رضوانك، ومن اليقين ما يهون علينا من مصيبات الدنيا. اللهم امتعنا بأسماعنا**

(١) سورة الأحزاب، الآية ٣٩.
(٢) سورة فاطر، الآية ٢٨.

**وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا واجعلها الوارث منا واجعل ثأرنا على من ظلمنا وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ولا تسلّط علينا من لا يرحمنا، برحمتك يا أرحم الراحمين»**[1].

هذا دعاء كان رسول الله ﷺ يقرؤه، فمن شاء فليحفظه ويقرؤه، وليرجعوا إلى (مفاتيح الجنان) أو (زاد المعاد) ليروا أعمال ليلة النصف من شعبان حيث يقرأ هذا الدعاء، كما أنه يقرأ في أوقات أخرى أيضاً، لأنّه دعاء جامع لمصالح الإنسان في الدنيا والآخرة.

فالشرط الأول الذي يطلبه القرآن من حامل الدعوة ومبلغ الرسالة إذن فما هي خشية الله؟ هي أن تكون هيبة الله وعظمته قوية الحضور في قلبه بحيث لا يمرّ بذلك القلب مجرد تصور الإثم إلّا وتكون الخشية من الله هي الرادعة.

والشرط الثاني هو «**ولا يخشون أحداً إلا الله**». أنّ «**الخشية**» تختلف عن «**الخوف**». فالخوف هو القلق على العاقبة والمستقبل، والتفكير في نتيجة عمل ما لتدبيره أما الخشية فهي حالة تسلط الرعب على الإنسان بحيث لا يجرؤ على أمر أو على تنفيذ ما يريد، وهذا يعني أنّه يفقد شجاعته. فالتفكير في عاقبة أمر ما لتدبيره يختلف عن فقدان الشجاعة.

(١) إقبال الأعمال، ابن طاووس، ج ٣، ص٣٢١.

**٩. ما الفرق بين التذكر والتفكر؟**

في القرآن أمران يردان متقاربين «**التذكر والتفكر**».

والتفكر هو محاولة الكشف عن شيء لا تعرفه، إعمال الفكر للوصول إلى ما لا تعرف. والتذكر هو استرجاع ما سبق لك أن عرفته. فما معنى هذا؟

هنالك أمور كثيرة موجودة في فطرة الإنسان ولكن الإنسان غافل عنها، فهو بحاجة إلى التذكير ليتذكرها.

وبعبارة أخرى، للبشر حالتان: حالة يكون فيها جاهلاً، وحالة يكون فيها نائماً. كثيراً ما يحدث ألا نكون على علم بما يدور حولنا، فنحن مستيقظون ولكننا لا نعلم. ومرة أخرى لا نكون على علم بما يدور حولنا لا لأنّنا نائمون فعلاً، فالنائم يعرف كثيراً من الأمور، ولكنّه واقع تحت تأثير حالة لا يستطيع معها الاستفادة ممّا يعرف. هذا هو النوم الحقيقي. إلا أنّ للبشر نوماً آخر يطلقون عليه اسم (نوم الغفلة). فالله في خطابه للرسولﷺ يقول: أيُّها النبي، لا تظنن أنّك تواجه الجاهل فحسب، بل إنّك تواجه الغافل أيضاً. فاحمل الجاهل على التفكر، والغافل على التذكر. والناس يغفلون أكثر ممّا هم يجهلون. إنّهم نائمون فأيقظ النيام، ونبّه الغافلين، فإنهم إذا تنبهوا ساروا، كالقافلة التي أخذت تسير وبقي أحد أفرادها نائماً فأيقظه، وعندئذٍ سيدرك بنفسه الخطر المحدق به، ولسوف يلتحق بالقافلة بغير حاجة إلى من يدفعه

إليها. استنهض مشاعر الناس النائمة، فبعض الإيمان من يقظة المشاعر النائمة.

**١٠. هل كانت أخلاق النبي ﷺ عامل جذب للمسلمين؟ اذكر أمثلة على ذلك؟**

إنّ من شروط الزعيم القائد الذي يدعو الناس إلى الإسلام أن تكون أخلاقه الخاصة لينة عطوفاً.

ينبغي أن أوضح هذا الجانب بعض الشيء لكي أكون قد أجبت عن سؤال قد يدور في الأذهان فيما يتعلق بأخلاق النبي ﷺ، فنحن عندما نقول: إنّ أخلاقه لينة عطوفة، إنّما نقصد أنّها كذلك في الأمور الفردية والشخصية، لا في المسائل المبدئية الكلية التي كان فيها أشد ما يكون صلابة. فقد يؤذي بعضهم شخص النبي ﷺ بقول أو إهانة أحياناً، وقد يخالف بعضهم التعاليم الإسلامية، بسرقة مثلاً. فما القصد من قولنا: إنّ النبي كان هيناً؟ أيعني ذلك أنّه إذا شرب أحد الخمر كان النبي يغض الطرف عنه؟ ولا يقيم الحد عليه؟ ولا يعاقبه؟ هذه المخالفة ليست ممّا يتعلق بشخص النبي نفسه، بل بتعاليم الإسلام.. أو إذا سرق أحدهم، فهل كان النبي يتساهل معه ولا يقتص منه؟ أكان الأمر هكذا؟ كلا، أبداً ففي الأمور الشخصية والسلوك الفردي كان النبي ﷺ ليناً متساهلاً، ولكنّه في الالتزامات والمسؤوليات الاجتماعية كان في منتهى الشّدة والخشونة.

وإليكم هذا المثال: يزعم أحد اليهود أنّ النبي مدين له ببعض المال، فيسد عليه الطريق مطالباً إيّاه بتسديد الدين. فيقول له النبي: إنّ ادعاءك هذا غير صحيح، وإنّي لست مديناً لك بشيء، فاتركني أذهب إلى حال سبيلي ، ثمّ إنّي لا أحمل مالاً معي فيرد اليهودي: كلا، لا أدعك تنقل قدماً عن قدم. كان النبي ذاهباً للصلاة إلّا أنّ هذا اليهودي كان يصر على ألا يدع النبي يتحرك قبل أن يدفع له دينه. وكلّما أظهر النبي اللين واللطف ازداد اليهودي فظاظة وخشونة، حتى يبلغ الأمر بالرجل أن يأخذ بخناق النبي ويختطف عباءته من فوق كتفه ويلفها حول رقبته بشدّة بحيث يظهر أثرها على رقبته. وإذ يستبطئ المصلون قدوم النبي، يقومون للبحث عنه، فيرون المشهد المذكور، ويحاولون التدخل، إلّا أن النبي يمنعهم من ذلك، ويزداد في ملاينة اليهودي وملاطفته حتى يحمله على النطق بالشهادتين، ويعترف له بالنبوّة، ويقول: إنّ تحملك هذا لا يقدر عليه الناس العاديون، بل هو من شيم الأنبياء. وثمة مثال آخر عند دخول النبيﷺ مكة، والظاهر أنّه كان عند فتح مكة.. امرأة من أشراف قريش ترتكب جريمة السرقة، والإسلام يقضي بقطع يد السارق. وقد ثبتت السرقة على المرأة واعترفت هي بها، فكان لا مندوحة من إنزال القصاص بها. وهنا تبدأ الوساطات بالعمل ويتقدم الوجهاء بالتوصية والرجاء من رسول اللهﷺ ألّا يقيم الحد عليها، فهي ابنة فلان وهو شخص محترم. وإنّ إنزال

القصاص بابنته سوف يهدر كرامة القبيلة كلها.

فيردّ النبي ﷺ عليهم: لن يكون هذا أبداً. كيف يمكن أن أتغاضى عن إقامة حدود الإسلام؟! لو لم تكن هذه المرأة من النخبة، ولو لم يكن لها قبيلة وعشيرة، لكنتم جميعاً تطالبونني بإنزال القصاص بها. فالفقير الذي قد يسرق لفقره يجب أن ينال العقاب، ولكن هذه المرأة ذات الأصل الشريف ينبغي أن تعفى من العقاب لأنّ ذلك يهين كرامة أهلها. لا يمكن تعطيل حدود الله! ورفض رسول الله ﷺ الوساطات والشفاعات. إنّه لم يكن يلين مطلقاً في قضايا المبدأ، ولكنّه على العكس من ذلك كان في منتهى اللين والتعطف في القضايا الخاصة، كثير العفو فيها.

## ١١. لماذا طلب الله سبحانه وتعالى من نبيه ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[١]؟

وهذا أيضاً من مظاهر ليونة النبي ﷺ حسن أخلاقه. إنّ المطلوب منه أن يستشير المسلمين في الأمور. عجباً، أينبغي على النبي أن يستشير؟ إنّ المرء قد يستشير لحاجته إلى طلب المشورة. ولكن النبي لا تكون به حاجة إلى المشورة من حيث المبدأ، إلّا أنّه لكي لا يجعل من عدم المشورة سنة متبعة فيأتي كل حاكم ويطلب من الناس الطاعة العمياء، كان يشاور الناس. كذلك كان يفعل علي عليه السلام.

(١) سورة آل عمران، الآية ١٥٩.

إنّهم لم تكن بهم حاجة إلى المشورة، ولكنّهم لكي يعلموا الآخرين عليها أولاً، ولكي يمنحوا أتباعهم الشخصية والمكانة ثانياً، كانوا يشاورونهم. كيف ترى يكون شعور أتباع لا يستشيرهم قائدهم في أمورهم، حتى وإن يكن رأيه الخاص صحيحاً مئة بالمئة؟ لا شك أنّهم يرون أنفسهم مجرد أدوات لا غير. ولكنّهم إذا وجدوا أنفسهم يسهمون في تسيير الأمور، وأنّ لهم رأياً يؤخذ به، لازدادوا ثقة بأنفسهم وارتفعت مكانتهم في أعينهم، ولأصبحوا خير أتباع.

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ﴾ ولكن عليك - أيُّها النبي - أن لا تجعلك المشورة ذا قلبين كسائر الناس. فإذا شاورت واتخذت القرار، فيجب أن يكون القرار قاطعاً.. المشورة قبل القرار، والبت بعد القرار، والشروع بالعمل بعد الاتكال على الله. تقدم وأنت تستعين بالله.

## ١٢. أليس انتشار الإسلام بفضل مال خديجة وسيف علي إكراهاً في الدين؟

أفي القرآن ما يشير إلى أن الإسلام قد تقدم بالذهب والقوّة؟! أقال علي عليه السلام يوماً: إنّ الإسلام قد انتشر بسيفه وبذهب خديجة؟! ما من شك في أنّ أموال خديجة قد أفادت المسلمين، ولكن هل صرفت تلك الأموال لنشر الدعوة؟ كانت أموال خديجة كثيرة، فهل دفعت هذه الأموال لأشخاص لكي يسلموا؟ أفي التاريخ شيء

من هذا؟ لا أحسبكم واجدين شيئاً من ذلك في التاريخ. عندما كان النبي وأتباعه يمرون بظروف معاشية صعبة، وضعت السيّدة خديجة أموالها تحت تصرّف المسلمين لسدّ حاجاتهم اليومية، وليس لكي يرشو النبي (والعياذ بالله) الناس للدخول إلى الإسلام.

ثم إنّ ذلك المال لم يكن بذلك المقدار الذي ينفع في أمثال ذلك الغرض. صحيح أنّها كانت تعد من أصحاب الثروات في مكة الصغيرة، ولكنّها بالطبع لم تكن تبلغ مبلغ أصحاب الملايين والبلايين في طهران اليوم. وصحيح أنّه كان في مكة عدد من التجار وأصحاب رؤوس الأموال، ولكن أصحاب رؤوس الأموال في نيشابور، لا مثل أصحاب رؤوس الأموال في طهران ومشهد. لولا أموال خديجة فلربّما كان الفقر والإملاق يقضيان على المسلمين.. أموال خديجة كان لها فضل إدامة حياة المسلمين، لا لأنها استخدمت لرشوة الناس لإدخالهم في الإسلام. إنّ أموال خديجة أبقت على رمق المسلمين.

كما أنّ سيف علي عليه السلام لا شك قد خدم الإسلام، ولولا سيف علي لكان مصير الإسلام غير هذا، ولكن علياً لم يصلت سيفه فوق رقبة أحد طالباً منه الدخول في الإسلام، إنّما ارتفع سيف علي حينما كانت سيوف أخرى قد ارتفعت لتقتلع الإسلام من جذوره.

### ١٣. ما معنى العصمة عند الأنبياء؟

إنّ من جملة مختصات الأنبياء هي العصمة، والعصمة تعني

الصيانة من الذنب والخطأ. أي إنّ الأنبياء لا يقعون تحت تأثير أهوائهم النفسية، ولا يرتكبون ذنباً، ولا يخطؤون في أعمالهم. وتجنبهم هذا للأخطاء والذّنوب يضفي عليهم أسمى مرتبة من قابلية الاعتماد. والآن لنرى كيف تكون هذه الصيانة. هل إنّها بحيث عندما يريدون أن يرتكبوا ذنباً يأتي مأمور غيبي ويمنعهم من ذلك كالأب الذي يمنع ولده من الانزلاق (في المعاصي)؟ أو بهذه الصورة، وهي أنّ جبلة الأنبياء وطينتهم هي بصورة بحيث لا يتمكن منها الخطأ والاشتباه، كما أنّ الملك لا يزني لأنّه خال من الشهوة الجنسية، أو أنّ الآلة الحاسبة لا تخطئ لأنّها لا ذهن فيها؟ أم إنّ عدم ارتكاب الأنبياء للذّنوب وعدم اشتباههم معلول لنوع من نظرتهم ودرجة يقينهم وإيمانهم. وبالطبع، فإنّ هذا الشق وحده هو الصحيح، والآن نذكر كلّاً من هاتين الصيانتين على حدة:

أما الصيانة من الذنب: إنّ الإنسان موجود مختار ويختار أعماله على أساس المنافع والمضار والمصالح والمفاسد التي يميّزها، لذا فإنّ للتمييز الدور المهم في اختيار الأفعال. ومن المستحيل أن يختار الإنسان شيئاً عديم الفائدة، أو أنّه ضار من جهة أخرى بناءً على تمييزه – فمثلاً – إنّ الإنسان العاقل الذي يهوى الحياة لا يرمي نفسه من الجبل عالماً، ولا يتجرع السم القاتل.

إنّ الأشخاص يختلفون من ناحية الإيمان والانتباه إلى آثار الذنوب، فكلّما كان إيمانهم أقوى وانتباههم إلى آثار الذّنوب أكثر

كان اجتنابهم عن الذنب أكثر وارتكابهم له أقل. وإذا كانت درجة الإيمان تصل إلى حد الشهود والعيان إلى الحد الذي يتصور الإنسان نفسه حين ارتكاب الذنب كالشخص الذي يريد أن يرمي نفسه من الجبل أو يتجرع السم القاتل، فاحتمال اختيار الذنب هنا يصل إلى الصفر. أي إنّه لا يتجه نحو الذنب أبداً. ومثل هذه الحالة نسميها العصمة إذاً فالعصمة من الذنب ناتجة من كمال الإيمان وصلابة التقوى. ولا ضرورة للإنسان في قوّة خارجة تصده عن الذنب جبراً من أجل وصوله إلى حد «**الصيانة**» و«العصمة» من الذنب، أو أن يكون الشخص المعصوم بحكم جبلته وطينته مسلوب القدرة. فإذا كان الإنسان لا يتمكن من ارتكاب الذنب أو أنّ قوّة تصده عن الذنب دائماً، فعدم ارتكابه للذنب لا يعتبر له كمالاً، لأنّه يشبه الشخص السجين الذي لا يتمكن من المخالفة، وعدم مخالفة مثل هذا الشخص لا يمكن أن تضعه في سجل الصدق والأمانة.

أما الصيانة من الخطأ: إنّ الصيانة من الخطأ وليدة نوع من نظرة الأنبياء أيضاً. فالخطأ يحدث دائماً من حيث يواجه الإنسان واقعة عن طريق الحس الباطني أو الخارجي، ويكون لها عدد، من الصور الذهنية في ذهنه، ويقوم بتحليلها وتركيبها بقوّة عقله، ويتصرف فيها بصور مختلفة فيخطئ أحياناً في مطابقة الصور الذهنية مع الواقعيات الخارجية، وفي ترتيب تلك الصور. ولكن عندما يواجه الإنسان مباشرة وقائع عينية عن طريق حس خاصة،

وأنّ إدراك الواقع هو نفس الاتصال بالواقع. لا صورة ذهنية عن الاتصال بالواقع، فلا معنى للخطأ والاشتباه بعد ذلك.

والأنبياء الإلهيون لهم اتصال بواقع الوجود في باطنهم، فلا يفترض الخطأ في نص الواقع، فمثلاً لو وضعنا مئة حبة من عقد «**سبحة**» في إناء، ثم مئة حبة أخرى ونعيد هذا العمل مئة مرة فمن الممكن أن يخطئ ذهننا ويتصور أنّ هذا العمل تمّ اتسع وتسعين مرة أو مئة مرة ومرة، ولكن من المستحيل أن يخطئ الواقع نفسه، وبالنظر إلى كون العملية قد تكررت مئة مرة فيكون مجموع الحبات أكثر أو أقل، فالأشخاص الذين يكونون في نص مجرى الواقع من حيث الوعي، ويتصلون بأصل الوجود وجذره الحوادث ويكونون وحدة واحدة سيعصمون من كل أنواع الأخطاء ويصانون.

### ١٤. ما هو الفرق بين الأنبياء والعباقرة في النبوغ الفكري؟

فالعباقرة أشخاص لا يمتلكون طاقة تفكير وتعقل وتدبير قوية، أي إنّهم يتصلون بالأشياء عن طريق حواسهم، ويعملون بقوة عقلهم المدبر حول معطيات أذهانهم، ويصلون إلى نتيجة، ويخطؤون أحياناً. والأنبياء الإلهيون بالإضافة إلى تمتعهم بقوّة العقل والتفكير والتدبير الذهني مجهزون بقوّة أُخرى باسم «**الوحي**»، والعباقرة لا يتمتعون بهذه القوّة. ولهذا السبب لا يمكن مقايسة الأنبياء بالعباقرة بأي وجه، لأنّ المقايسة تكون صحيحة عندما يكون عمل

الطرفين من نوع واحد ومن سنخ واحد، ولكن عندما يكون نوعان وسنخان فالمقايسة خطأ - فمثلاً - تصح المقايسة بين اثنين في القوّة الباصرة أو السامعة أو التفكير، ولكن لا يصح القياس بين قوّة الباصرة عند شخص وقوّة السامعة عند الآخر، ثم نقول: أيّهما أقوى. إنّ نبوغ العباقرة له صلة بقوّة التفكير والتأمّل البشري، وخارقية الأنبياء لها صلة بقوّة أخرى تُسمى «**الوحي**» والاتصال بمبدأ الوجود، ولهذا فمن الخطأ القياس بينهما.

## ١٥. بيّن أهمية الإخلاص في النية في عمل الأنبياء؟

إنّ الأنبياء - بحكم أنّ لهم سنداً إلهياً - لم ينسوا أنّ على عاتقهم رسالة يؤدونها من قبل الله، ويقومون بعمله (هو) يخلصون غاية الإخلاص في عملهم، أي إنّهم لا غاية لهم ولا هدف سوى هداية البشر وهي ما يريدها الله، ولا يريدون «**أجراً**» من الناس لإنجاز رسالتهم. وقد نقل القرآن الكريم في سورة الشعراء أقوال كثيرة من الأنبياء في مجابهة أقوامهم بصورة موجزة. وبالطبع، فإنّ كل نبي كانت له رسالة خاصة إلى قومه تتناسب والمشكلة أو المشكلات التي يواجهها في طريقه. ولكن إحدى الموضوعات التي تتكرر في رسالات جميع الأنبياء هي: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[1] لذا فإنّ الإخلاص وعدم الغاية الشخصية هما

(١) سورة الشعراء، الآية ١٤٥.

من مميزات النبوة، ولهذا السبب فإنّ رسالة الأنبياء تمتاز دائماً بطابع «**جازم**» لا نظير له. والأنبياء؛ بحكم أنّهم يشعرون بأنّهم «**مبعوثون**»، لا يخطر ببالهم أدنى شك في رسالاتهم. بجزم قاطع ويدافعون عنها بشكل لا يمكن العثور على مثله. إنّ موسى بن عمران وأخاه هارون بالوقت الذي كانا فيه يرتديان الثياب الصوفية ويمسكان العصا بأيديهما، وكان كل أثاثهما الظاهري يقتصر على هذا، دخلا على فرعون ودعواه، وقالوا له بجزم وحزم: إن لم تقبل دعوتنا، فإنّ زوال حكمك حتمي، وإن قبلت دعوتنا وتدخل في الطريق الذي نريده؛ فإنّنا نضمن لك العزة. فقال فرعون مستغرباً: انظروا إلى هذين اللذين يتحدثان عن ضمان عزتي إن أتبعتهما وإلّا فزوال حكومتي[١].

والنبي الكريم ﷺ في سنوات البعثة الأولى. وقد كان المسلمون يتجاوزون عدد أصابع الكفين جمع بني هاشم في مجلس سجله التاريخ بـ«يوم الإنذار»وبلغهم رسالته، وأعلن بجزم وصراحة: بأنّ الدّين سوف يسود العالم، وسعادتكم تكمن في اتباعكم وقبولكم دعوتي. فكان القول هذا ثقيلاً عليهم، ولا يمكن تصديقه إلى حد بحيث كان ينظر بعضهم بعضاً، وتفرقوا دون الإجابة عليه. وعندما بلغ أبو طالب عم النبي الكريم قول قريش بأنّنا مستعدون لنختاره ملكاً علينا، ونزوِّجه أجمل بناتنا، ونجعله أثرى شخص فينا بشرط

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٠.

أن يترك أقواله. قال في جوابهم: «**والله لو وضعت يا عم، الشمس في يميني، والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر أبداً من أنفذه أو أهلك في طلبه إلى الطاعة لربّي**»[1]. نعم، كما أنّ العصمة من الذنب في قيادة الناس من مستلزمات التسلح بقوّة الوحي والاتصال بالله، فإنّ الإخلاص والحزم أيضاً من مستلزمات النبوة.

## ١٦. ما هي أهمية البناء والجهاد في حركة النبوة؟

### البناء:

إنّ الأنبياء الذين يحركون الطاقات وينظمونها، يكون ذلك لمجرد بناء الفرد وبناء المجتمع الإنساني. وبعبارة أخرى بقصد السعادة البشرية. ومن الممتنع والمستحيل أن يتم ذلك لغرض فساد المجتمع الإنساني أو فنائه. وإذا كانت دعوة مدعي النبوة تفسد الناس، وتبطل طاقاتهم، وتجرهم إلى الفحشاء والرذيلة، وفناء المجتمع الإنساني وانحطاطه فهي الدليل القاطع على أنّ هذا المدعي غير صادق في دعوته. و«لإقبال اللاهوري» هنا قول قيم أيضاً، يقول: «**والطريق الآخر للحكم حول قيمة تجربة دينية يقوم بها نبي أي (كون رسالته حقيقية، واتصاله الباطني بالله واقعياً) هو تجربة أنواع الإنسانيات التي أوجدها، والاهتمام أيضاً بذلك العالم هو الثقافة والمدنية التي نبعت من رسالته**»[2].

(١) أنساب الأشراف، ج ١، ص٢٣٠.

(٢) إحياء الفكر الديني في الإسلام، ص١٤٤.

## النزاع والجهاد:

إن النزاع مع الشرك والخرافات والجهل والتخيلات والمظالم والجور هو أحد العلائم الأخرى لصدق نبوة مدعي النبوة. أي من المستحيل أن ينتخب شخص نبياً واقعياً من قبل الله ويشم في رسالته رائحة الشرك، أو أنّه يسارع إلى مساعدة الظالم، أو أنّه يؤيد الظلم وعدم العدالة، أو أنه يسكت أمام الشرك والجهل والخرافات والمظالم، ولا يشن الحرب لمجاهدتها.

إنّ التوحيد والعقل والعدل من أصول دعوة جميع الأنبياء. ودعوة بعض الأشخاص فقط الذين يدعون في هذا السبيل يمكن دراستها ومطالبتها بالدليل والمعجزة، أي لو جاء شخص في رسالته بما خالف التوحيد أو يخالف العدل ويؤيد الظلم، فإنّ رسالته لا تستحق الدراسة وطلب الدليل أيضاً، كأن يرتكب مدعي النبوة ذنباً أو خطأ، أو أنّه يعجز عن قيادة الناس، وإن كان مصدر عجزه مرضاً جسمياً، ومرضاً ممقوتاً كالجذام، أو أنّ دعوته لا تكون في خط بناء الناس، فإنّ رسالته لا تستحق مطالبتها بالدليل والمعجزة. وعلى هذا فإنّ مثل هؤلاء الأشخاص حتى لو فرض (بفرض المستحيل) أنّهم يأتون بالمعجزة، ويعرضون معاجز كثيرة، لا يجوز العقل متابعتهم.

### ١٧. هل الجانب البشري موجود عند الأنبياء؟

إنّ الأنبياء بكل جوانبهم الخارقة للعادة من قبيل المعجزة، والعصمة من الذنب والعصمة من الخطأ، القيادة المنقطعة

النظير، البناء الفريد، نزاعهم المنقطع النظير مع الشرك والخرافات والمظالم، فهم من جنس البشر أي إنّهم يمتلكون كل مستلزمات البشرية، يأكلون وينامون ويمشون ويتوالدون وبالتالي يموتون كالآخرين، وتشملهم التكاليف التي يقومون بتبليغها للبشر، والحرام والحلال موجود بالنسبة إليهم أيضاً ويكلفون أحياناً بتكاليف أشد، كما كان التهجد في أواخر اللّيل ونافلة اللّيل واجباً على الرسول الكريم. ولا يستثني الأنبياء أنفسهم من التكاليف أبداً، ويخافون الله كالآخرين أو أشد خوفاً. ويعبدون الله أكثر من الآخرين، يؤتون الزكاة، ويحسنون لعباد الله، ويسعون من أجل حياتهم وحياة الآخرين، ولا يكونون عالة على الآخرين. والفرق بين الأنبياء والآخرين هو في موضوع الوحي ومقدماته ولوازمه فقط. والوحي لا يخرج الأنبياء من البشرية، بل يجعلهم نموذجاً للإنسان الكامل وأسوة للآخرين. ولهذا السبب يكونون قادة الآخرين وطلائعهم.

**١٨. اذكر بعض موارد تأثير الأنبياء في التكامل التاريخي؟**

وهذه هي موارد تأثير تعاليم الأنبياء في التكامل التاريخي:

١- **التربية والتعليم:** كان للتربية والتعليم دافع ديني في الماضي، وكان الدافع الديني في الماضي نصير المعلمين والآباء والأُمّهات ومساعدهم، وهذا المورد من الموارد التي أزال فيها تكامل الشعور الاجتماعي الحاجة إلى الدافع الديني.

٢- **تحكيم المواثيق والعهود:** إنّ حياة الإنسان الاجتماعية قائمة على أساس احترام العهود والمواثيق والعقود والوفاء بالعهد. وإنّ احترام العهد والميثاق لهو أحد أركان الجانب الإنساني للمدنية البشرية. وقد أخذ الدين هذا الدور على عاتقه دائماً، ولا زال حتى الآن لم يحصل على خليفة له. يعترف «**ويل دورانت**» بهذه الحقيقة في كتاب دروس التاريخ - مع أنّه فرد ملحد فيقول: «**إنّ الدين بالاستمداد من شعائره قد جعل المواثيق البشرية بصورة علاقات مقدّسة بين الله والإنسان، وأوجد الثبات والاستحكام عن هذا الطريق**».

كان الدين بصورة عامة الرصيد الرصين للقيم الأخلاقية والإنسانية، والقيم الأخلاقية بلا دين تشبه النقود الورقية التي لا رصيد لها، والتي سرعان ما يتضح عدم اعتبارها.

٣- **التحرر من القيود الاجتماعية:** إنّ دور الأنبياء في مكافحة الاستبداد وخنق الحريات، ومقاومة مظاهر الطغيان هو من أكثر الأدوار أساسية، ويؤكد القرآن كثيراً على دور الأنبياء هذا. ويذكر أولاً إقامة العدل باعتباره هدف البعثة والرسالة. ثانياً يكرر ذكر مجابهة الأنبياء مع ظاهر الاستبداد في قصصه، ويصرح في بعض آياته أنّ الطبقة التي كانت في حرب دائبة مع الأنبياء هي هذه الطبقة.

## ١٩. ما هي أسباب تجديد النبوة ولماذا ختمت؟

مع كون النبوة مجرى متصلاً واحداً، وأنّ رسالة الله - أي الدّين - لم يكن سوى حقيقة واحدة، فإنّ أسباب تجديد النبوات التشريعية والتبليغية وظهور الأنبياء على التوالي، وتوقف كل هذه الأمور بعد ظهور خاتم الأنبياء هو:

### أولاً: عدم القدرة على المحافظة على الكتاب

لما كان الإنسان القديم بسبب عدم بلوغه الفكري ونضجه غير قادر على المحافظة على كتابه السماوي، وأصبحت الكتب السماوية عادة موضع تحريف وتغيير، أو ربّما تؤول إلى الضياع نهائياً، ولذا كان لزاماً أن تتجدد الرسالة، وأن عصر نزول القرآن أي قبل أربعة عشر قرناً كان مقارناً للدور الذي وضعت البشرية فيه طفولتها خلفها، وتتمكن فيه من المحافظة على مواريثها العلمية والدينية، ولذا فلم يتسرب التحريف إلى آخر كتاب سماوي مقدّس أي القرآن. وكل المسلمون عامة يحفظون كل آية عند نزولها في صدورهم أو في كتاباتهم بشكل كان لا يتسرب إليها أي نوع من التحريف والتغيير أو الحذف أو الإضافة، ولذا فلم يحدث التحريف والزوال في الكتاب السماوي، وهذا سبب من أسباب انتفاء تجديد النبوة.

### ثانياً: عدم القدرة على البرنامج الكلي للمسير

لم تكن البشرية في الأدوار السابقة قادرة على تلقي خطة عامة

لمسيرتها، ثم تستمر على ضوء تلك الخطة في طريقها، وذلك بسبب عدم بلوغها ونضجها، فكان من اللازم أن توجه مرحلة مرحلة ومنزلاً منزلاً، وأنّ يرافقها الأدلاء دائماً.

ولكن القدرة على تلقي الخطة العامة قد ظهرت عند الإنسان في عصر الرسالة الخاتمة وما بعده، وتوقف برنامج الحصول على الأدلة المرحلية منزلاً منزلاً. وبالإضافة إلى السبب المتقدم زوال الكتب السماوية – أو وقوع التحريف فيها – فإنّ سبب تجديد الشرائع كان في أنّ الإنسان لم يكن قادراً على تلقي خطته العامة والجامعة ومع ظهور هذه القدرة والقابلية أصبحت الخطة العامة الجامعة في متناول أيدي البشر، وبهذا السبب أيضاً انتفى تجديد النبوات والشرائع.

وعلماء الأمة هم المتخصصون الذين يدلون على الطريق باستخدام الخطة العامة للهداية التي وضعها الإسلام وبتدوين المناهج والتنظيمات.

**ثالثاً: قابلية علماء هذا العصر على حمل رسالة التبليغ والتشريع**

كان أغلب الأنبياء – بل أكثريتهم التي تقارب الإجماع – تبليغيين لا تشريعيين – وربّما لا يتجاوز الأنبياء التشريعيون عدد أصابع الكف الواحدة، وكان عمل الأنبياء التبليغيين هو تبليغ الشريعة وترويجها وتنفيذها وشرحها، ويتمكن علماء الأمّة في عصر الخاتمية الذي هو عصر العلم من تطبيق الكليات مع الظروف والمقتضيات الزمانية والمكانية بمعرفة أصول الإسلام العامة

ومعرفة الظروف، ثم استنباط الحكم الإلهي واستخراجه، واسم هذه العملية «**الاجتهاد**». وإنّ علماء الأمّة الإسلامية الأكفاء يقومون بكثير من واجبات الأنبياء التبليغيين وبعض واجبات الأنبياء التشريعيين (دون أن يكونوا مشرعين) عن طريق الاجتهاد وواجب هداية الأمّة الخاص. ولهذا فقد انتفت الحاجة إلى تجديد النبوة ونزول كتاب سماوي جديد ومجيء نبي جديد إلى الأبد وانتهت النبوة بنفس الوقت الذي بقيت فيه الحاجة إلى الدّين دائماً، بل كلّما تقدمت البشرية نحو المدينة تكثر الحاجة إلى الدّين.

## ٢٠. هل هناك معجزة للنبي ﷺ غير القرآن الكريم؟ ولماذا لم يستجب لطلبات المشركين؟

### معجزة غير القرآن:

هل أنّ نبي الإسلام لم تكن له معجزة غير القرآن؟ إنّ هذا الموضوع بغضّ النظر عن أنّه غير مقبول من ناحية التاريخ والسُنّة والحديث المتواتر مخالف لنص القرآن الكريم، وقد جاء انشقاق القمر في القرآن نفسه، ولو أوّل شخص انشقاق القمر فرضاً (وبالطبع فإنّه غير قابل للتأويل) فكيف يفسر قصة المعراج وسورة الإسراء؟ يقول بصراحة تامة: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾[1]. ألم يكن هذا الحادث خرقاً للعادة، معجزة؟!

(١) سورة الإسراء، الآية ١.

وجاء في سورة التحريم المباركة قصة إيداع النبي بعض أزواجه حديثاً وإفشاء تلك المرأة الحديث إلى امرأة أخرى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾[١]. إنّ الآيات ٩٠ – ٩٣ من سورة الإسراء وآيات أُخرى من هذا القبيل التي استند إليها هي شيء آخر، لم يكن هناك موضوع طلب المعجزة. بمعنى «**الآية**» و«البينة» من قبل أُناس كانوا في شك واقعاً ويبحثون عن الدليل والبرهان والبينة. إنّ هذه الآيات والآية الخمسين من سورة العنكبوت[٢] تبين بوضوح منطق المشركين الخاص في طلب المعجزة ومنطق القرآن الخاص في فلسفة معاجز الأنبياء.

يبدأ كلام المشركين في الآيات ٩٠ – ٩٣ من سورة الإسراء كما يلي: (لن نؤمن لك حتى تفجر لنا) أي أنّنا لن نؤمن لأجل فائدتك وصالحك وندخل في قومك حتى تفيدنا مقابل ذلك وتجري لنا الماء في هذه الأرض القاحلة – فهي معاملة بشرط – أو تكون له جنة تجري من تحتها الأنهار مليئة بالأشجار والثمار، أو أن يكون له بيت من ذهب (بحيث نستفيد نحن منه أيضاً) فهي معاملة أيضاً. أو تسقط علينا قطعة من السّماء (كما تظنّ أنّ هذا سيحدث يوم القيامة) أي العذاب والموت ونهاية المطاف، لا المعجزة. أو تجيء

(١) سورة التحريم، الآية ٣.

بالله والملائكة إلينا، أو تصعد إلى السّماء وتنزل إلينا وباسمنا يضم أمجادنا، فهي معاملة أيضاً (ولكنّها ليست مالية، بل فخرية واعتبارية دون الإنتباه إلى استحالة الموضوع). ولم يقل المشركون: لن نؤمن بك.. أي ما دمت لم تأت بالمعجزة لا نؤمن بك، بل قالوا: لن نؤمن لك. أي لا نلتحق بجماعتك لمصلحتك، أي إنّه تصديق مصلحي، بيع وشراء بالعقيدة. وفرق بين «**آمن به**» و«آمن له». وقد استنبط علماء أُصول الفقه هذه النكتة الظريفة في مورد الآية ٦١ من سورة التوبة التي تصف رسول الله ﷺ حال كونه: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]. بالإضافة إلى أنّ قريشاً كانوا قد طلبوا في مقابل هذا التأييد والتصديق المصلحي بتعبيرهم قضية ﴿... تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾[2] أي أجر لنا عين ماء، ومن الواضح أن القضية قضية «**إجراء**» لا طلب «**بينة**» ومعجزة ودليل. فالنبي قد جاء ليخلق مؤمناً واقعياً، لا أنّه يشتري الرأي والعقيدة بثمن المعجزة.

بغضّ النظر عن كل هذه الأمور ذكر القرآن معاجز الرسل في آيات كثيرة، فعندما يطلبون من النبي الكريم كما طلبوا من الرسل الماضين وقد أجابوا، ويقول النبي: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ فكيف كان من الممكن معجزات إبراهيم وموسى

(١) سورة التوبة، الآية ٦١.

(٢) سورة الإسراء، الآية ٩٠.

وعيسى مع هذا الحال؟! أما كان لهم الحق بأن يقولوا: ألم يكن الأنبياء السابقون الذي تنقل -أنت بالذات- معاجزهم بالتفصيل بشراً أولم يكونوا رسلاً؟ هل من الممكن أن يكون مثل هذا التناقض الصريح في القرآن؟ هل من الممكن ألا ينبه المشركون لمثل هذا التناقض؟ وإذا كان المنطق المتنور هذا صحيحاً كان على النبي أن يقول بدل (سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولا): سبحان ربّي أنا خاتم الرسل، ومستثنى عن قاعدة الرسل الآخرين؛ فلا تطلبوا منّي ما طلب من سائر الرسل، لا أن تقولوا إني رسول كسائر الرسل.

إذاً يتضح إذا ما كان يريده المشركون من النبي لم يكن معجزة أي الآية والبينة لغرض كشف الحقيقة التي يريدها الباحثون عن الحقيقة من الذين يدعون النبوة، كان شيئاً لم يكن في شأن الأنبياء بصورة عامة أن يستجيبوا لمثل هذه الطلبات. ولهذا قال النبي: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾[1] أي إنّ ما تريدونه لم يكن ما يريده الباحث عن الحقيقة من الأنبياء والرسل، ويلتزم الرسول أن يجيبوا على طلبه بالإيجاب، وإنّما هو شيء آخر، اتفاق ومعاملة، بل هو النظر إليّ - وغضّ النظر عن الله -، وطلب الشيء منّي بالاستقلال وإبداء التكبر والأنانية، وإثبات الأفضلية للنفس على الآخرين، وطلب عدد من الأمور المستحيلة.

(١) سورة الإسراء، الآية ٩٣.

## ٢١. ما هي نظرة القرآن الكريم إلى «الغيب والشهادة» وتأثيرهما على الهداية؟

إنّ ممّا يمتاز به القرآن - دونما ريب - هو الدعوة إلى دراسة عالم الطبيعة والشهادة باعتبارها آيات إلهية، ولكن الدعوة إلى دراسة عالم الطبيعة لم تكن بمعنى صرف الأذهان عن الاتجاه لكل أمر غير طبيعي، بالعكس، فإنّ الدعوة إلى دراسة الطبيعة باعتبارها «**آيات**» و«بينات» تعني الاجتياز من الطبيعة إلى ما وراء الطبيعة. وفي نظر القرآن يكون الاجتياز إلى الغيب من الشهادة، وإلى ما وراء الطبيعة من الطبيعة، وإلى المعقول من المحسوس. وتكمن أهمية عمل النبي محمد ﷺ في أنّه كما يدعو إلى النظر في الطبيعة والتاريخ والمجتمع، ويجعل الناس - الذين لا يسلمون إلّا أمام كل ما هو غير طبيعي - يسلمون للعقل والمنطق والعلم، يحاول أن يعرِّف فكر الناس ـ الذين يتفوهون بالعقل والمنطق، ولا يخضعون لغير ما هو طبيعي ومحسوس ـ على منطق أسمى وأعلى. إن الميزة العالمية الأساسية التي يعرضها الدّين بصورة عامة والإسلام بصورة خاصة عن العالم الذي يعرض العلوم والفلسفات البشرية المحضة، على حد تعبير «**ويليم جيمس**» إنّ في جهاز عالم الدين عناصر بالإضافة إلى العناصر المادية، وفيه قوانين بالإضافة إلى القوانين البشرية المعروفة.

لا يريد القرآن أن يحل الاهتمام بالطبيعة والمحسوسات محل

الاهتمام بما وراء الطبيعة وغير المحسوسات، وأهمية القرآن في أنّه جعل الإيمان بالغيب عنواناً لدعوته بنفس الوقت الذي جعل فيه الاهتمام بالطبيعة، وبتعبير القرآن نفسه «**الشهادة**»: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾[1].

## ٢٢. كيف اهتم المسلمون بالقرآن الكريم؟

لقد عمل المسلمون في كل عصر حول القرآن بما يتناسب وإمكانياتهم الفكرية والعملية متأثرين بشوقهم وولعهم بكتابهم السماوي، من قبيل تعلمه وحفظه في صدورهم، قراءته عند أساتذة القراءة والتجويد، تفسير معانيه، توضيح وشرح مفرداته في كتب اللغة الخاصة بهذا العمل، عدّ آياته وكلماته وحتى حروفه، التدقيق في معانيه، والاستفادة منه في القضايا القانونية، والأخلاقية، والاجتماعية، والفلسفية والعرفانية والعلمية، وتلميع أقوالهم وكتاباتهم بآيات القرآن، والكتابات البارزة المنحوتة أو المنقوشة على القاشاني، وكتابته بخطوط جميلة جداً، وتذهيبه، وتعليمه لأولادهم قبل كل تعليم، وتأليف النحو والصرف من أجل القرآن وإبداع علم المعاني والبيان والبديع، وتأليف مفردات اللغة العربية وجمعها وأمثال ذلك. فصار ولع المسلمين وحبهم للقرآن سبباً في إيجاد عدد من العلوم الأدبية والعقلية بحيث لو لم يكن القرآن لما وجدت هذه العلوم.

(١) سورة البقرة: الآيات ٢ - ٣.

**٢٣. بيِّن الجانب الجمالي والفني الإعجازي للقرآن الكريم؟**

لم يكن سبك القرآن شعراً ولا نثراً، أمّا عدم كونه شعراً لأنّه لا وزن ولا قافية فيه، بالإضافة إلى أنّ الشعر يصحبه نوع من التخيل الذي يدعى بالخيال الشعري ويتقوم الشعر بالمبالغة والإغراق وهو نوع من الكذب، ولا وجود في القرآن للتخيلات الشعرية والتشبيهات الخيالية، وبنفس الوقت لم يكن نثراً عادياً، لأنّه يقوم على نوع من الانسجام والنغم والموسيقى الذي لم يشاهد في أي كلام منثور حتى الآن. وقد تلا المسلمون ويتلون القرآن بألحان خاصة به دائماً.

وقد جاء في الأوامر الدينية أن أتلو القرآن بالألحان الرقيقة، وكان الأئمة الأطهار يتلون القرآن في بيوتهم أحياناً - بألحان جذابة - بحيث يتوقف المارة في الطريق لسماعها. ولم يكن أي نثر كالقرآن يقبل الترتيل، وهو التراتيل والألحان الخاصة المتناسبة مع العوالم الروحانية لا الألحان المناسبة لمجالس اللهو. وبعد اختراع الراديو، لم يتمكن أي كلام روحاني أن يساوي القرآن من حيث الجمال وقبول الألحان الروحانية. وقد أحلت بعض الدول غير الإسلامية بالإضافة إلى الدول الإسلامية القرآن في برامجهم الإذاعية لجماله ولحنه، والغريب أنّ جمال القرآن قد اجتاز الزمان والمكان . فإنّ كثيراً من الكلام الجميل يختص بعصر واحد، ولا يلائم ذوق العصر الآخر، أو على الأقل يلائم ذوق شعب واحد يتمتع بثقافة خاصة، ولكن جمال القرآن لا يعرف

الزمان الخاص ولا العنصر الخاص ولا الثقافة الخاصة. إنّ جميع الناس المطلعين على لغة القرآن وجدوه مناسباً لذوقهم، وكلّما يمرّ الزمان وكلّما تتعرف الشعوب المختلفة إلى القرآن تنجذب بجمال القرآن أكثر فأكثر. وحاول اليهود والنصارى المتعصبون وأتباع الأديان والمذاهب الأخرى خلال أربعة عشر قرناً بأنواع المعارضات للحط من منزلة القرآن، فنسبوا له التحريف حيناً، وشكك البعض في قصص القرآن حيناً آخر، وقاموا بشكل آخر من النشاط ضد القرآن في حين آخر، ولكن لم يروا بداً أن يستعينوا ببلغائهم وفصائحهم لتلبية صرخة القرآن في طلب المبارزة، وأن يأتوا -على الأقل- بسورة صغيرة كالقرآن، فيعرضوها لأهل العالم. وكذلك فقد ظهر في تاريخ الإسلام كثير من الأشخاص عرفوا بـ (الزنادقة) أو (الملاحدة) وكان لبعضهم بروز خارق، وقد تفوهت هذه الزمرة ضد الدين بصورة عامة والقرآن خاصة بأشكال وأقسام مختلفة، وكان البعض منهم يعتبر رباً للكلام باللغة العربية، وقاموا لمعارضة القرآن أحياناً، ولكن العمل الوحيد الذي قاموا به هو أنّهم أثبتوا عظمة القرآن وصغر أنفسهم بصورة أكثر. وقد أورد التاريخ قصصاً في هذا المجال عن «**ابن الراوندي**» و«أبي العلاء المعري» أو«أبي الطيب المتنبي» الشاعر العربي الشهير، وكان هؤلاء أشخاصاً يريدون أن يثبتوا بأنّ القرآن من صنع البشر.

وقام الكثيرون بادّعاء النبوة، وجاؤوا بأقوال - بزعمهم - شبيهة

القرآن، وادعوا بأنّ هذه الأقوال - كالقرآن - من عند الله، منهم (طليحة)، و(مسيلمة) و (سجاح)، وقد أثبت هؤلاء أيضاً عظمة القرآن وصغر أنفسهم بنوع آخر.

والغريب أنّ كلام النبي نفسه الذي جرى القرآن على لسانه يختلف عن القرآن وقد بقي عن الرسول أقوال كثيرة بصورة خطب ودعاء وكلمات قصار وحديث، وهي في قمة الفصاحة، ولكنّها لم تكن بصيغة القرآن ورائحته بأي وجه. وهذا يثبت أنّ القرآن وأقوال النبي يجريان من منبعين منفصلين. كان علي حافظاً للقرآن، ويتلوه دائماً. وعندما كان يقف للعبادة ليلاً كان يطيب له آيات القرآن. فإذا كان من الممكن تقليد سبك القرآن كان حرياً بعلي مع تلك القابلية المنقطعة النظير؛ ومع تلك الفصاحة والبلاغة والخطابة التي لا نظير لها بعد القرآن، أن يتبع سبك القرآن، وتكون خطبه بأسلوب آيات القرآن تلقائياً، ولكنّنا نرى في أنّ سبك القرآن يختلف تماماً عن سبك علي عليه السلام.

وعندما كان علي يضمّن خطبه الغراء الفصيحة البليغة آية من القرآن كانت تختلف تماماً وكأنّها الكوكب الزاهر جداً بين سائر النُّجوم. لا نظير لهندسة الكلام في القرآن، لم يتمكن أحد من تقديم أو تأخير كلمة في القرآن دون أن يخدش جمالها، ولا تمكن أحد من الإتيان بمثله. فالقرآن من هذه الناحية كالبناء الجميل الذي لا يتمكن أحد من أن يجعله أكثر جمالاً بالتغيير فيه أو النقل،

ولا يتمكن من بناء بناية أحسن منه أو مثله. إنّ أسلوب القرآن وسبكه لا سابق ولا لاحق، أي إنّه لم يتحدث شخص بهذا السبك قبلاً ولا يتحدث به بعداً، ويتمكن من منافسته أو تقليده مع كل التحديات وطلب المبارز من جانب القرآن. ولا زال تحدي القرآن وطلبه المبارز ثابتاً كالجبل وسيبقى إلى الأبد، واليوم يدعو كل المسلمين المؤمنين الناس في العالم للمشاركة في هذا السباق، ولو حصل للقرآن مثيل أو شبيه، فسوف يغضون النظر عن دعوتهم وإيمانهم، وهم واثقون من عدم وجود مثل هذا الشيء.

**٢٤. بين الجانب العلمي والفكري والإعجازي للقرآن الكريم؟**

يحتاج إعجاز القرآن من حيث المعاني إلى بحث أوسع، وعلى الأقل يحتاج إلى كتاب، ولكن يمكن تهيئة المجال بصورة موجزة. علينا أن نعلم أولاً أنّ القرآن أي كتاب هو؟ هل إنّه كتاب فلسفي؟ هل هو كتاب علمي؟ كتاب أدبي؟ كتاب تاريخي، أو إنّه أثر فني محض؟ والجواب: لم يكن القرآن أياً من هذه، كما أنّ النبي الكريم بل الأنبياء عامة، هم من نوع خاص، لا هم فلاسفة ولا علماء ولا أدباء ولا مؤرخون ولا فنانون أو صناعيون، وهم بنفس الوقت يملكون كل ذلك مع شيء إضافي؛ فالقرآن الذي هو كتاب سماوي أيضاً ليس بفلسفة ولا علم ولا تاريخ ولا أدب ولا أثر فني، يحتوي بنفس الوقت على مزاياها جميعاً، بالإضافة إلى عدد من المزايا الأُخرى. فالقرآن كتاب هداية البشر، وهو في الواقع - كتاب (الإنسان) -،

ولكن الإنسان كما خلقه ربّ الإنسان، وجاء الأنبياء ليعرفوه بنفسه، ويرشدوه إلى طريق سعادته.

ولما كان كتاب الإنسان، فهو كتاب (الله) أيضاً، لأنّ الإنسان ذلك الموجود الذي يبدأ خلقته ممّا قبل هذا العالم، وتنتهي إلى ما بعد هذا العالم، أي إنّ الإنسان - من وجهة نظر القرآن - نفحة الروح الإلهية، ويرجع - شاء أم أبى - إلى ربّه. ولذا فإنّ معرفة الله ومعرفة الإنسان لا ينفصلان عن بعضهما، ولا زال الإنسان لم يعرف نفسه لن يعرف ربّه بصورة صحيحة، ومن جهة أخرى فإن الإنسان مع معرفة الله يتمكن من معرفة واقعه الحقيقي.

إنّ الإنسان في مدرسة الأنبياء التي يكون القرآن أكمل بيان لها، يختلف كثيراً عن الإنسان الذي يعرفه البشر عن طريق العلوم، أي إنّ هذا الإنسان أوسع بكثير، فالإنسان الذي يعرفه البشر عن طريق العلوم يكون بين قوسي (الولادة - والممات) ويغطي الظلام ما قبل القوسين وما بعدهما، ومجهولات من وجهة نظر العلوم البشرية، ولكن إنسان القرآن لا يحصره هذان القوسان، إنّه جاء من عالم آخر؛ وعليه أن يكمل نفسه في مدرسة الدّنيا. ومستقبله في العالم الأخر له صلة بنشاطه وجهده أو كسله وضعفه في مدرسة هذا العالم. ثمّ إن إنسان ما بين الولادة والموت كما يعرفه البشر أكثر سذاجة ممّا يعرفه

الأنبياء. إنّ إنسان القرآن يجب أن يعلم: من أين أتى؟ إلى أين يذهب؟ أين هو الآن؟ كيف يجب أن يكون؟ ماذا يجب أن يعمل؟ إنّ إنسان القرآن عندما يجيب علنياً عن هذه الأسئلة الخمسة بصورة صحيحة فإنّ سعادته الواقعية الموجودة في هذا العالم وفي العالم الذي يجب الذهاب إليه تكون مأمونة.

إنّ هذا الإنسان عليه أن يعرف ربّه من أجل أن يعلم من أين أتى ومن أي مصدر بدأ. وعليه أن ينظر في العالم والإنسان باعتبارهما آيات آفاقية وأنفسية، ويتعمق في أعماق الوجود من أجل أن يعرف ربّه. وعليه من أجل أن يعلم إلى أين يرجع أن يتأمل ويفكر فيما يسميه القرآن بالرجوع إلى الله، أي المعاد وحشر الأموات، وأهوال القيامة والنعم الخالدة، والعذاب الأليم، والخالد أحياناً وبالتالي المراحل والمنازل المقبلة، ويتعرف إليها، ويعتقد بها ويؤمن ويعرف الله بأنه الآخر ونقطة رجوع الموجودات كما يعرفه الأول ونقطة بدء الموجودات. وعليه من أجل أن يعلم أين هو أن يعرف سنن العلم وأنظمته، ويدرك موضع الإنسان ومنزلته بين سائر الموجودات، ويعرف ذاته بين الموجودات. وعليه من أجل أن يعلم كيف يجب أن يكون أن يعرف الأخلاق والطباع الإنسانية ويبني نفسه وفق تلك الأخلاق والطباع. بالإضافة إلى كل هذه الأمور فإنّ إنسان القرآن عليه أن يؤمن بعدد من الموجودات اللامحسوسة اللامرئية، ويعتبر

القرآن (الغيب) باعتبارها مظاهر ومجاري للإرادة الإلهية في نظام الوجود. وعليه أن يعلم أيضاً أنّ الله تعالى لم يهمل الإنسان الذي يحتاج إلى التوجيه السماوي في أي زمان أبداً. وقد قام صفوة من الأشخاص الذين كانوا رسل الله وهداة البشر، فبُعثوا من قبل الله وبلّغوا الرسالة الإلهية. وإنسان القرآن يلقي النظر على الطبيعة باعتبارها (آية) وعلى التاريخ باعتباره (مختبراً) واقعياً يوصل صحة تعاليم الأنبياء.

**٢٥. أذكر أهم الموضوعات التي تناولها القرآن الكريم؟**

إن الموضوعات التي عرضها القرآن كثيرة، ولا يمكن عدها بصورة جزئية، ولكن هذه الموضوعات تلوح للعين في نظرة سريعة:

- الله، ذاته، صفاته، توحيده، وما يجب أن ينزه الله عنه، وما يجب أن يتصف به (الصفات السلبية والثبوتية).
- المعاد، بعث الأموات وحشرهم، مراحل ما بين الموت والقيامة (البرزخ).
- الملائكة، وسائط الفيض، والقوى الواعية بنفسها وبخالقها، والمنفذة للأوامر الإلهية.
- الأنبياء، أو الأشخاص الذين تلقوا الوحي الإلهي في ضمائرهم وبلغوه إلى الناس الآخرين.
- التحريض والحث على الإيمان بالله، بالمعاد، بالملائكة، والرسل والكتب السماوية.

- خلق السماوات، الأرض، الجبال، البحار، النباتات، الحيوانات، السحاب، الريح، المطر، البرد، والشهب وغيرها.
- الدعوة إلى عبادة الله الأحد، والإخلاص في العبادة وعدم الشرك بالله في شخص أو شيء، التحريم الشديد لعبادة غير الله من إنسان أو ملك أو شمس أو نجم أو صنم.
- ذكر نعم الله في هذا العالم.
- النعم الخالدة في ذلك العالم للصالحين والمحسنين، والعذاب الأليم والخالد أحياناً في ذلك العلم للمسيئين.
- الاحتجاجات والاستدلالات في موضوع الله والقيامة، والنبيين وغير ذلك، وبعض الأخبار الغيبية خلال هذه الاحتجاجات.
- التاريخ والقصص باعتبارها مختبراً إنسانياً يوضح صدق دعوة الأنبياء وعواقب الصالحين الذين ساروا على سنن الأنبياء، وعاقبة مكذبيهم.
- التقوى والصلاح وتزكية النفس.
- الانتباه إلى النفس الأمارة والخطر والوسواس والتسويلات النفسية والشيطانية.
- الأخلاق الحسنة الفردية كالشجاعة، الاستقامة، الصبر، العدالة، الإحسان، المحبة، ذكر الله، حب الله، شكر الله،

الخوف من الله، التوكل على الله، الرضا برضاء الله، والتسليم لأمر الله و التعقل والتفكير، العلم والوعي، نورانية القلب عن طريق التقوى والصدق والأمانة.

- الأخلاق الاجتماعية كالإتحاد، التواصي بالحق (التوصية المتقابلة)، التواصي بالصبر، التعاون على البر والتقوى، ترك البغضاء، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله بالمال والنفس.
- الأحكام، الصلاة، الصوم، الزكاة، الخمس، الحج، الجهاد، النذر، اليمين، البيع، الرهن، الإجارة، الهبة، النكاح، حقوق الزوجين، حقوق الوالدين والأولاد، الطلاق، اللعان، الظهار، الوصية، الإرث، القصاص، الحدود، الدين، القضاء، الشهادة، الحلف (اليمين)، الثروة، الملكية، الحكومة، الشورى، حق الفقراء، حق المجتمع وغير ذلك.
- الحوادث والوقائع في دور بعثة الرسول الكريم خلال ثلاث وعشرين عاماً.
- خصائص الرسول الكريم وأحواله، صفاته الحميدة، العتاب الموجه له.
- وصف عام لثلاث فئات في جميع العصور: المؤمنين، الكافرين، والمنافقين.
- وصف المؤمنين والكافرين والمنافقين في عصر البعثة.

- المخلوقات اللامرئية الأخرى غير الملائكة، الجن والشاطين.
- تسبيح موجودات العالم وتحميدها، ونوع من الوعي في باطن جميع الموجودات بالنسبة إلى خالقها ومبدعها.
- وصف القرآن نفسه (حوالي خمسين وصفاً).
- العالم وسنن العلم، عدم ثبات الحياة الدنيا، عدم صلاحيتها لكي تكون غاية للإنسان وكمال مطلوبه، وأن الله والآخرة، وبالتالي العالم الخالد يستحق أن يكون غاية الإنسان القصوى.
- تأييد الكتب السماوية السابقة، لا سيّما التوراة والإنجيل، وتصحيح أغلاط هذين الكتابين وتحريفهما.

## ٢٦. كيف يصف القرآن الكريم الله سبحانه وتعالى وكيف يبين علاقة الإنسان بالله؟

قد جاء القرآن بأجمل العبارات حول علاقة الإنسان بالله، وأن ربّ القرآن بعكس ربّ الفلاسفة لم يكن ربّاً جافاً بلا روح وغريباً على البشر، إنّ الله أقرب إلى الإنسان من حبل وريده، وهو مع الإنسان في أخذ وعطاء، ورضاء متقابل، يجذبه إليه وهو مادة اطمئنان قلبه ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[1]، يألفه الإنسان

(١) سورة الرعد، الآية ٢٨.

ويأنس به، بل الأشياء كلها تريده وتدعوه، وللموجودات جميعاً شغل وسر معه من أعماق وجودها. يثنون عليه ويسبحونه: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[1]. ورب الفلاسفة الذين يعرفونه باسم المحرك الأول أو واجب الوجود فقط موجود غريب عن البشر خلقه وجاء به إلى هذا العالم فقط. ولكن ربّ القرآن (حبيب) وأصل تعلق البشر، يلهب الإنسان ويجعله مستعداً للتضحية، ويأخذ - أحياناً - نوم ليله وراحة نهاره، لأنّه يظهر بصورة (فكرة) مقدّسة خارقة. وقد أوصل الفلاسفة الإسلاميون - على أثر اطلاعهم بالقرآن وإدخال المفاهيم القرآنية - الموضوعات الإلهية إلى أسمى مراتبها. هل من الممكن لشخص (أُمّي لم يتعلّم، ولم يرَ المعلّم، ولم يذهب إلى المدرسة، أن يتقدّم في الموضوعات الإلهية من عند نفسه إلى هذا الحد، بحيث تقدم آلاف السنين على أفكار فلاسفة كأفلاطون وأرسطو.

### ٢٧. ما هي مصادر المعرفة التي أشار إليها القرآن الكريم؟

ما هي مصادر المعرفة؟ إنّ مصادر المعرفة من وجهة نظر الإسلام هي عبارة عن الطبيعة أو الآيات الآفاقية، والإنسان أو الآيات الأنفسية، والتاريخ أو قصة الأقوام والشعوب الاجتماعية، العقل أو الأصول والمبادئ الفطرية الأولية، والقلب أي القلب في

(١) سورة الإسراء، الآية ٤٤.

مستوى التصفية والتزكية، وآثار الماضين العلمية والتحريرية.

وقد دعا القرآن في كثير من الآيات إلى النظر في طبيعة الأرض والسماء: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾[١]، ودعا أيضاً إلى التدبر في تاريخ الأقوام الماضية للتعلم: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ﴾[٢]. وكذلك يرى العقل والمبادئ الفطرية العقلية معتبرة، ويستند إليها على استدلاله: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾[٣]، (برهان التمانع). أو يقول: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[٤]، (برهان التنسيق ووحدة اتجاه النظام). وهكذا يعتبر القرآن القلب مركزاً لعدد من الإلهامات والإيحاءات الإلهية، فكل إنسان بالقدر الذي اجتهد واحتفظ بطهارة هذا المركز وتوجيهه إليه، وتغذيته المعنوية عن طريق الاهتمام بالإخلاص والعبودية، يتمتع بسلسلة من الإلهامات والإيحاءات. ووحي الأنبياء هو المرتبة العليا لهذا النوع من المعرفة، كما أنّ القرآن أشار إلى قيمة القلم والكتاب والكتابة مكرراً، وقد أقسم بها في بعض الموارد: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾[٥].

(١) سورة يونس، الآية ١٠١.
(٢) سورة الحج، الآية ٤٦.
(٣) سورة الأنبياء، الآية ٢٢.
(٤) سورة المؤمنون، الآية ٩١.
(٥) سورة القلم، الآيات ١-٢.

## ٢٨. ما هي مميزات الإسلام من الناحية الفكرية؟

إنّ بيان مميزات الإسلام من الناحية الفكرية صعب جداً بالنظر إلى اتساع شعاع فكرة الإسلام سواء من ناحية المميزات العامة أو من ناحية مميزات فرع خاص من فروع هذه الفكرة. وإنّنا نفهرس ما يتيسر لنا الآن في هذه الفرصة لأنّ «**ما لا يدرك كله لا يترك جلُّه**».

**الشمول:** هو من مميزات الإسلام بالقياس إلى الأديان الأُخرى، وبتعبير أصح إنّ من جملة مميزات الصورة الكاملة الجامعة لدين الله بالنسبة إلى الصور الابتدائية هي جامعيته وشموله. والمصادر الرباعية الإسلامية تكفي ليكشف علماء الأمة وجهة نظر الإسلام حول كل موضوع.

**قبول الاجتهاد:** فالكليات الإسلامية قد نظمت بشكل يقبل الاجتهاد، والاجتهاد يعني كشف الأُصول العامة الثابتة وتطبيقها على الموارد الجزئية المتغيرة.

**السماحة والسهولة:** فالإسلام - بتعبير الرسول الكريم «**شريعة سمحة سهلة**»[1] فلم توضع في هذه الشريعة - باعتبارها سهلة -

(١) بعثت على الشريعة السمحة» إنّ هذا الحديث مشهور بهذا اللفظ، ولكنّني لم أذكر أنّي رأيته بهذا اللفظ في مكان. وقد جاء في الكافي، ج٥، ص٤٩٤: «**لم يرسلني الله بالرهبانية ولكن بعثني بالحنيفية السهلة السمحة**». وفي كتاب الجامع الصغير (من كتب أهل السنة) نقله عن تاريخ الخطيب، وفي كنوز الحقائق (من كتب أهل السّنة) نقله عن الترمذي: «**بعثت على الحنيفية السمحة**».

تكاليف محرجة شاقة: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[١]، وهي تسامح باعتبارها سمحة، وكلّما صار التكليف حرجاً وعسيراً يلغى.

**التمسك بالحياة:** إنّ الإسلام دين متمسك بالحياة لا يتهرب من الحياة، فلذا يكافح «**الرهبانية**» بشدّة، «**لا رهبانية في الإسلام**»[٢]. وإنّ (مدنية الإسلام وشموله) جعل التمسك بالآخرة ضمن التمسك بالحياة، فمن وجهة نظر الإسلام يُجتاز طريق الآخرة في وسط الحياة ومسؤولياتها الدنيوية.

**اجتماعيته:** إنّ للأحكام الإسلامية ماهية اجتماعية، حتى في أخص الفرديات كالصلاة والصوم فقد دخل فيها تطعيم اجتماعي، وإنّ أحكام الإسلام الكثيرة الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والحقوقية والجزائية صادرة عن هذه الخصلة. كما أنّ أحكاماً من قبيل الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صادرة عن المسؤولية الاجتماعية الإسلامية.

**حقوق الفرد وحريته:** إنّ الإسلام بنفس الوقت الذي هو دين اجتماعي ويفكر بالمجتمع ويعتبر الفرد مسؤولاً عن المجتمع، لا يغض النظر عن حقوق الفرد وحريته، ولا يعتبره غير أصيل. فللفرد -من وجهة نظر الإسلام- حقوقه سواء من الناحية السياسية، أم الاقتصادية، أم القضائية، أم الاجتماعية.

(١) سورة الحج، الآية ٧٨.

(٢) دعائم الإسلام، ج ٢، ص١٩٣.

تقديم حق المجتمع على حق الفرد: يتقدم حق المجتمع على حق الفرد، والحق العام على الحق الخاص فيما يحصل التعارض فيه بين حق المجتمع وحق الفرد، والحاكم الشرعي هو الذي يقرر في هذه الموارد.

**أصل الشورى**: إنّ أصل الشورى في القضايا الاجتماعية أصل معتبر من وجهة النظر الإسلامي. يجب على المسلمين أن يتخذوا نهجاً عملياً بالتشاور والتفكير الجماعي في الموارد التي لم يرد فيها نص عن الإسلام.

**انتفاء الضرر**: إنّ الأحكام الإسلامية المطلقة العامة واجبة التنفيذ ما دامت لا تستلزم الإضرار، وقاعدة الضرر قاعدة كلية في الإسلام، وفيها حق النقض «**الفيتو**» في كل مورد قانوني ينتهي بالضرر.

**أصالة الفائدة**: فمن وجهة نظر الإسلام يجب النظر بالدرجة الأولى في الفائدة والنتيجة المفيدة في كل عمل فردياً كان أم اجتماعياً، فكل عمل لا يسفر عن فائدة يعتبر «**لغواً**» بنظر الإسلام ويكون ممنوعا» ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾[1].

أصالة الخير في التبادل: يجب أن ينزه تداور المال والثروة في النقل والانتقال من كل أنواع العبث، ويجب أن يحص خير مادي أو معنوي لقاء كل نقل أو انتقال وإلا فمداورة المال باطلة وممنوعة:

(١) سورة المؤمنون، الآية ٣.

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾[١]. فانتقال الأموال عن طريق القمار مصداق لأكل المال بالباطل وهو حرام.

**مضادة ضد العقل:** يحترم الإسلام العقل ويعتبره النبي الباطني، وأنّ أصول الدين لا تقبل إلّا بالتحقيق العقلي، وفي فروع الدّين يكون العقل أحد مصادر الاجتهاد. ويعتبر الإسلام العقل نوعاً من الطهارة وزواله نوعاً من «**الحدث**»، لذا فإنّ عروض الجنون أو السكر يعتبر ناقضاً للوضوء كالنوم أو البول. وإنّ مكافحة الدين لكل نوع من أنواع السكر وتحريم المواد المسكرة هو بسبب مضادة ضد العقل الذي هو جزء من الدّين.

**مضادة ضد الإرادة:** كما أنّ العقل محترم وجاءت بعض الأحكام الإسلامية للمحافظة على العقل فإنّ الإرادة التي هي القوّة التنفيذية للعقل محترمة أيضاً، لذا فإنّ المانع الذي يسمى بلغة الإسلام بـ «**اللهو**» حرام وممنوع.

**العمل:** إنّ الإسلام عدو البطالة، فالإنسان يجب عليه - بحكم استفادته من المجتمع، وبحكم أنّ العمل أفضل عوامل بناء الفرد والمجتمع، وأنّ البطالة أكبر عوامل الفساد - أن ينجز عملاً مفيداً. وقد جعل كون الفرد كلاً وطفيلياً على المجتمع بكل أشكاله موضع اللعن: «**ملعون من ألقى كله على الناس**»[٢].

(١) سورة البقرة، الآية ١٨٨.

(٢) إنّ ما جاء في النص النبوي «**البيع الغرر**» ولكن الموازين الاجتهادية تتحكم بإلغاء الخصوصية وتعتبر مطلق الغرر ممنوعاً.

**قدسية الحرفة والمهنة:** إنّ الحرفة والمهنة - بالإضافة إلى أنّها تكليف - أمر مقدس ومحبوب عند الله، ويشبه الجهاد «**إنّ الله يحب المؤمن المحترف**»، «**الكاد على عياله كالمجاهد في سبيل الله**»[1].

## ٢٩. كيف كانت طفولة النبي ﷺ؟

مات أبوه في المدينة في سفر تجارة إلى الشام وهو في رحم أمّه، وتعهد جده عبد المطلب بكفالته، وكانت آثار العظمة وخرق العادة تظهر على وجهه ومن سلوكه وقوله منذ الطفولة. وقد أدرك عبد المطلب بفراسته أنّ لحفيده مستقبلاً زاهراً.

وكان في الثامنة من عمره عندما قضى جده عبد المطلب، وتكفله عمه الكبير أبو طالب وفقاً لوصية جده. وكان أبو طالب يستغرب أيضاً من سلوك هذا الطفل الذي لم يشبه سائر الأطفال. ولم يشاهد أبداً كسائر الأطفال الذين في عمره أن يحرص على الطعام أو يبدي له رغبة، كان يكتفي بطعام قليل، ويمتنع من الزيادة خلافاً للأطفال الذين في سنه، وخلافاً للعادة والتربية في ذلك العصر كان يمشط شعره، ويحافظ على نظافة رأسه ووجهه.

أراد أبو طالب منه ذات يوم أن ينزع ثيابه بحضرته ويذهب إلى فراشه، فتلقى هذا الأمر منه بكراهية، ولما كان لا يرغب في التمرد على عمه، قال له: أدر بوجهك لأتمكن من نزع ثوبي، فتعجب

(١) المقنع، الشيخ الصدوق، ص٣٦١.

أبو طالب من كلام الطفل هذا، لأنّ العرب في ذلك العصر كانوا - حتى كبارهم - لا يتمنعون من تعرِ أعضاء الجسم. يقول أبو طالب: (لم أسمع منه كذبة أبداً، ولم أر منه عملاً منافياً أو ضحكاً تافهاً، لم يرغب في ألعاب الأطفال، وكان يحب الوحدة والخلوة، وكان متواضعاً في كلّ حال)[١].

## ٣٠. تحدث عن كراهة النبي ﷺ للباطل وأمانته ومكافحة الظلم؟

**كراهة البطالة:**

كان يكره البطالة، ويقول: «**اللهم إني أعوذ بك من الكسل والكلل، ومن الضعف والعجز والخنوع**» وكان يشجع المسلمين على العمل ويقول: «**للعبادة سبعون جزءاً أفضلها الكسب الحلال**».

**الأمانة:**

قد قام بسفرة تجارية إلى الشام من قبل خديجة التي أصبحت زوجته وذلك قبل بعثته، واتضح في تلك السفرة أكثر من ذي قبل قابليته وأمانته واستقامته، وكان مشهوراً بالاستقامة بين الناس إلى درجة بحيث لقب بـ(محمّد الأمين)، وكانوا يسلمون الأمانات بيده. ولذا أبقى علياً عليه السلام بعد هجرته إلى المدينة أياماً ليؤدّي الأمانات إلى أهلها.

(١) مناقب آل أبي طالب، ج١، ص٢٦.

**مكافحة الظلم:**

تحالف في العصر الجاهلي مع الجماعة الذين كانوا يتألمون من الظلم أيضاً، للدفاع عن المظلومين والوقوف بوجه الظالمين، وقد عقد هذا الحلف في دار عبد الله بن جدعان من شخصيات مكة البارزين وسمي بـ(حلف الفضول) وكان يذكر ذلك الحلف بعد ذلك في عصر الرسالة، ويقول: لا أرضى بنقض ذلك الحلف، وأنا الآن مستعد للمشاركة في مثل هذا الحلف[1].

## ٣١. تحدث عن أخلاق النبي ﷺ العائلية؟

كان شفيقاً في علاقته، لم يبد عنفاً بالنسبة إلى أزواجه أبداً. وكان هذا مخالفاً لأعراف المكيين، وكان يتحمل الألفاظ البذيئة من بعض أزواجه إلى حد بحيث كان الآخرون يتألمون من هذا التحمل، فكان يوصي بحسن المعاشرة مع النساء ويقول: لكل الناس خصال حسنة وسيّئة، على الرجل ألا يرى جوانب زوجته السيّئة فقط ويتركها، لأنّه وإذا انزعج من إحدى خصالها فسيرضى عن خصلة أخرى، وعليه أن يحسب الخصلتين. كان عطوفاً جدّاً على أولاده وأسباطه، يحسن لهم ويجلسهم في حجره، ويركبهم على عاتقه، يقبلهم وكل هذه الأمور مخالفة للأخلاق والطباع السائدة في ذلك العصر، كان ذات يوم يقبل سبطه (الحسن المجتبى عليه السلام) بحضور أحد الأشراف، فقال ذلك الرجل لي ولدان لم أقبل أحدهما حتى الآن

(١) تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص١٧.

فقال: «**من لا يرحم لا يُرحم**»[١]. وكان يعطف على أولاد المسلمين يجلسهم على فخذه ويمسح بيده اللطيفة على رؤوسهم، وكانت الأمهات يقدمن أطفالهنّ الصغار ليدعوا لهم أحياناً، وكان يتفق أن يبوّل بعض الأطفال على ثوبه، فكانت الأمهات يخجلن ويتألمن، ويحاولن منع استمرار بول الطفل، فكان يمنعنهن بشدّة ويقول: لا تمنعن استمرار بول الطفل، فنجاسة ثوبي غير مهمة، أطهّره[٢].

## ٣٢. كيف كانت معاشرته للنّاس؟

كان في معاشرته مع النّاس عطوفاً هشاً بشاً، ويسبق في السلام على الجميع حتى على الأرقاء والأطفال، ولم يمد رجله بحضور أي شخص، ولم يتكئ، بحضور أحد وكان يجلس على ركبته (كجلسة الصلاة) غالباً، وكان يجلس في المجلس كالحلقة لكيلا يكون للمجلس صدر ومدخل ويكون للجميع متساوٍ. ويتفقد أصحابه، فإن لم ير أحداً منهم ثلاثة أيام، يطلب أخباره، فإذا كان مريضاً يعوده، وإذا كان مبتلى يساعده، ولم ينظر في المجلس إلى شخص معين فقط، ولم يخاطب شخصاً واحداً، بل كان يوزع نظراته بين الحاضرين، كان يكره الجلوس بينما يخدمه الآخرون، فكان يقوم ويشارك في الأعمال، ويقول: إنّ الله يكره أن يرى العبد يميز نفسه عن الآخرين[٣].

(١) روضة الواعظين، الفتال النيسابوري، ص٣٦٩.
(٢) راجع: ميزان الحكمة، ج ٤، ص٣٢٣١.
(٣) راجع: بحار الأنوار، ج ١٦، ص٢٩٨.

### ٣٣. كيف كان النبي يتعامل مع القضايا الشخصية؟

كان سمحاً عفواً مع لين الجانب في القضايا الشخصية وما يتعلق به، وكان عفوه وسماحته التاريخية العظيمة أحد عوامل تقدمه، ولكنّه في القضايا الأصولية العامة يظهر بحزمه وصلابته وشدته في إطار القانون، ولم ير السماح هناك.

وقد غض النظر - بعد فتح مكة وانتصاره على قريش - عن كل سيّئات قريش بالنسبة إليه خلال عشرين سنة، وعفا عنهم جميعاً. وقبل توبة قاتل عمّه الحبيب حمزة، وفي فتح مكة، عندما سرقت امرأة من بني مخزوم وثبتت جريمتها، وكان أهلها من أشراف قريش، وكانوا يرون تنفيذ الحد عليها إهانة لهم وحاولوا كثيراً ليصرفوا رسول الله عن تنفيذ الحد، وأثاروا بعض الصحابة للشفاعة، ولكن رسول الله كان قد أحمر وجهه من الغضب، وقال أي شفاعة هذه، أيعطل حكم الله من أجل الأشخاص، فقام عصر ذلك اليوم خطيباً وقال (ما مضمونه): انقرض الأقوام والأمم السالفة لأنّهم كانوا يميزون في تنفيذ أحكام الله، كانوا يعفون عن الأقوياء، إذا ارتكبوا جريمة، ويعاقبون الضعفاء إذا ارتكبوها، والذي نفسي بيده لا أتقاعس عن تطبيق (العدل) في حق أي شخص لو كان من أخص الأقرباء[١].

(١) بحار الأنوار، ج ٩٥، ص١٦٧.

## ٣٤. كيف كانت عبادة لى الله عليه وآله وسلم؟

كان يتعبد الله بعض اللّيل وتارة نصفه أو ثلثه، وتارة ثلثيه، مع أنّه كان يقضي كل نهاره في السعي لا سيّما أيام مكوثه في المدينة، ولم يحد من وقت عبادته، وكان يجد راحته وهدوءه التام في عبادة الله ومناجاته ومناداته، ولم تكن عبادته طمعاً في الجنّة أو خشية من النار، بل كانت على أساس الحمد والحب، قالت له إحدى أزواجه ذات يوم: أنت لماذا تعبد الله إلى هذا الحب وقد غفر الله لك؟ فأجابها: ألا أكون عبداً شاكراً[١]. كان يصوم بالإضافة إلى شهر رمضان وبعض شهر شعبان كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وكان لا يفرش له فراش أبداً في العشر الأواخر من شهر رمضان، ويعتكف في المسجد ويتعبد[٢]، ولكنّه كان يقول للآخرين يكفي أن تصوموا ثلاثة أيام من كل شهر، واعبدوا الله على قدر إمكانكم، ولا تحملوا أنفسكم ما لا طاقة لها فإنّ له أثراً عكسياً، وكان يخالف الرهبانية والانعزال وترك الأهل والعيال وأصبح بعض الأصحاب القائمين بذلك موضع ملامة وتقريع. وكان يقول:إنّ لأبدانكم وأزواجكم وأولادكم وأصحابكم عليكم حقوقاً يجب عليكم رعايتها[٣].

(١) الكافي، ج ٢، ص٩٥.
(٢) الكافي، ج ٤، ص١٧٥.
(٣) دعائم الإسلام، ج ٢، ص١٩٣. الكافي، ج ٥، ص٤٩٦.

وكان يطيل عبادته في حال الانفراد، وكان ينشغل بالتهجد لساعات عديدة. ولكنّه كان يختصر ذلك في الجماعة ويرعى حال أضعف المأمومين، ويوصي بذلك.

### ٣٥. كيف كان زهد النبي ﷺ وإرادته واستقامته؟

كان الزهد والبساطة من مبادئ حياته، يتناول الطعام البسيط، ويلبس الثياب البسيطة، ويتحرك ببساطة، ويفرش تحته حصيراً غالباً، وكان يجلس على الأرض، ويحلب المعزى بيده، ويركب على غير سرج أو جلال، وكان يمنع من الاحتفاف به بشدّة، وكان طعامه غالباً خبز الشعير والتمر، ويرقع ثوبه وخفه بيده، كان مع بساطته لا يؤيد فلسفة الفقر، ويعتبر الثروة واجبة لمصلحة المجتمع وصرفها في الطرق المشروعة، ويقول: «**نعم المال الصالح للرجل الصالح**»، وقال: «**نعم العون على تقوى الله الغنى**[1]».

### ٣٦. كيف كانت قيادته ونظمه وانضباطه؟

#### القيادة والإدارة والمشورة:

لم يستبد برأيه مع العلم بأنّ أمره كان نافذاً فوراً بين الصحابة، وكرروا القول بأنّنا لمّا كنّا نؤمن بك إيماناً قاطعاً فلو أنّك تأمرني بأن نرمي أنفسنا في البحر أو النار لفعلنا، وكان يستشير أصحابه

(١) الكافي، ج ٥، ص٧١.

في القضايا التي لم يأت بها حكم من قبل الله، ويحترم آراءهم، وكان يرفع من معنوياتهم عن هذا الطريق. وقد وضع في بدر موضع الاقدام على الحرب وتعيين الموضع، وكيفية معاملة أسراء الحرب موضع التشاور، وكذلك في أحد موضوع جعل المدينة مقراً للحرب أو خارجها، وشاور أصحابه في غزوة الأحزاب وتبوك أيضاً.

وكان لين النبي وعطفه، وعفوه وسماحته، واستغفاره لأصحابه، وتألمه من أجل غفران ذنوب أُمّته، وكذلك اعتبار أصحابه وأنصاره في الحسبان، واستشارتهم ورفع معنوياتهم من أسباب نفوذه وتغلغله العظيم عند جميع أصحابه ويشير القرآن الكريم إلى هذه الناحية فيقول: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾[1].

## النظم والانضباط:

كان النظم والانتظام يسود أعماله، وقد قام بتقسيم أوقاته، وأوصى بذلك، وكان أصحابه يطبقون الانتظام والانضباط تماماً بإشرافه ورعايته. وكان يرى من الواجب ألا يصرح ببعض القرارات، فلم يصرح بها لكيلا يطلع عليها العدو، وكان أصحابه ينفذون قراراته من دون كم وكيف.

(١) سورة آل عمران، الآية ١٥٩.

فمثلاً كان يأمر بالتأهب للتحرك غداً، فكان الجميع يسيرون معه نحو الجهة المقررة دون أن يعلموا بالمقصد النهائي، وكانوا في اللحظات الأخيرة يطلعون على ذلك، وكان تارة يأمر جماعة بالتحرك إلى جهة ويسلم قائدهم رسالة مغلقة ويقول له: افتحها عندما تصل إلى النقطة الفلانية بعد عدّة أيام ونفذ ما فيها. وكانوا يعملون بذلك، وقبل وصولهم إلى النقطة المعينة لم يكونوا يعرفون أين هو المقصد النهائي، ولأي أمر يتوجهون، وعلى هذا الترتيب كان لم يطلع الأعداء وجواسيسهم بالخبر، ويفاجئهم أحياناً.

## ٣٧. كيف كان النبي ﷺ يستوعب الانتقاد ويكافح نقاط الضعف؟

كان يواجه اعتراض بعض الأصحاب، ولكنّه يجلب رضاهم وموافقتهم لما يقرره هو من دون أن يغلظ القول معهم، وكان يبرأ من سماع المدح والتملق ويقول: أُحثوا التراب على وجه المداحين والمتملقين وكان يحب الإتقان في العمل، ويرغب في أن ينجز العمل متقناً إلى درجة بحيث عندما توفي صاحبه المخلص (سعد بن معاذ) ووضعوه في القبر نظم الصخور بيده وأحكم وضعها ثم قال: أنا أعلم بألا يمرُّ وقت طويل عليها إلّا وتنهدم ولكن الله يحب العبد إذا عمل عملاً أن يتقنه.

### مكافحة نقاط الضعف:

لم يستغل نقاط ضعف الناس وجهلهم، وبالعكس كان يكافحها ويوقف الناس على جهلهم، عندما توفي إبراهيم الذي كان يبلغ من العمر ثمانية عشر شهراً، وكان من الصدف أن انكسفت الشمس في ذلك اليوم، فقال الناس: إنّ سبب كسوف الشمس المصيبة التي وردت على رسول اللهﷺ فلم يسكت أمام خيال الناس الباطل هذا، ولم يستغل نقطة الضعف هذه، بل صعد المنبر، وقال: «**أيُّها الناس إنّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله ولم يكسفا لوفاة أحد**»[1].

### ٣٨. كيف ينظر الإسلام إلى المجتمع من الناحية الطبقية؟

على الرغم من أنّ الإسلام دين اجتماعي، يعترف بشخصية المجتمع، بحياته ومماته، بسعادته وشقائه، بصلاحه وفساده، بتقديم مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد، وبإلغاء الامتيازات الطبقيّة، إلّا أنّه مع كلِّ ذلك لا يغض الطرف عن حقوق الأفراد وامتيازاتهم الحقة، فهو لا ينظر إلى الفرد على أنّه لا شيء في قبال المجتمع، وأنّ الحق للمجتمع لا للفرد، وأن المالك هو المجتمع لا الفرد، والمجتمع هو الأصل لا الفرد،.لا شكّ أنّ الإسلام يعترف بالحقوق الخاصّة، وبالملكيّة الخاصّة، وبأنّ للفرد استقلاله وأصالته، ولا يرى عدالة في القضاء على كيان الفرد في المجتمع، بل يرى العدالة في توافر كامل

(١) المحاسن، ج ٢، ص٣١٢.

ودائم لظروف التنافس الشريف، وفي منح الأفراد حقوقاً وامتيازات خاصّة بموجب نتائج ذلك التنافس الذي يجري في ميادين العمل والتكليف والفضيلة. ولكن الذي لا يعتريه الشكّ مطلقاً هو أنّ الإسلام يقف بشدّة في وجه تلك الحقوق والامتيازات التي لا تمنح على أساس من العمل والتقوى والعلم والاجتهاد والحقّ. إنّه يرفض ذلك ليس فيما ورد من تشريع فحسب، بل في أعمال كبار رجالات الإسلام وفي سلوكهم أيضاً. إنّ المجتمع اللاطبقي في الإسلام هو المجتمع الخالي من التمايز، المجتمع الذي لا يقيم وزناً للامتيازات الموهومة، لا المجتمع الذي يهمل متعمداً المواهب والمكتسبات والكفاءات، ولا يأخذها بنظر الاعتبار.

### ٣٩. المسؤولية الدينية على نوعين، أذكرهما؟

### المسؤولية نوعان:

في الكلام الذي قلناه في موضوع «**الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**» أشرنا إلى مسألة أكرر قولها الآن، وهي أنّ المسؤولية الدينية على نوعين: نوع يشمل عملاً معيناً يؤدى في صورة معينة، والإسلام هو الذي يعين تفاصيل أمثال هذه الأعمال وأجزاؤها وكيفية أدائها ومواقيتها، ومن الطبيعي أن تكون هذه الأعمال قد فرضت للوصول إلى نتيجة معينة، ولكننا لسنا مسؤولين عن تلك النتائج، وهذه الأعمال هي التعبديات، ويمكن أن نسميها مسؤوليات

الشكل والهيئة. فللصلاة، مثلاً، مقدمات ومقارنات معينة، ولها شروط، وأجزاء وموانع، وقواطع، والأوامر الصادرة هي أن تقام الصلاة دائماً على هذه الصورة المعينة، وهي أوامر تعبدية محضة، ولهذا العمل بالطبع نتائج، إذ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾[1]، ولكننا مسؤولون عن المقدمات فقط لا النتائج، فإننا إذا أدينا الصلاة بصورة صحيحة وبحسب التعليمات المفروضة، فإنّ النتيجة تأتي في أعقابها.

هنالك نوع آخر من المسؤولية التي نسميها مسؤولية النتيجة، أي إنّ مسؤولية النتيجة ملقاة على عاتق الإنسان، فالمطلوب هو النتيجة، أما الوسيلة، والمقدمة، والشروط، والظروف، والصيغة، فإنها جميعاً متغيرة وليست ثابتة، بل تختلف باختلاف حالاتها الخاصة بها.

ولنضرب لذلك مثلاً: إذا افترضنا أن لك مشكلة، كأن يكون أحد معارفك في السجن، فقد تحتاج مرة أن تطلب من شخص ما عملاً معيناً بخصوص هذه المشكلة، كأن تطلب منه أن يوصل رسالة معينة وفي وقت معين إلى شخص معين.

لا شك إنك ما كتبت تلك الرسالة وما بعثت بها إلّا ابتغاء الوصول إلى نتيجة، ولكن حامل الرسالة تنحصر مسؤوليته بإيصال الرسالة، ومرة أخرى تريد النتيجة من هذا الشخص مباشرة، دون النظر إلى المقدمة. تقول له إنك تريد خلاص صاحبك من السجن

(١) سورة العنكبوت، الآية ٤٥.

دون أن تعين له سبيل الوصول إلى ذلك، فعليه هو أن يذهب ليرى ويعثر على أفضل وسيلة لتحقيق هذا المطلب.

هذه المسؤوليات تقع عادة عندما لا تكون الوسائل متشابهة، بل مختلفة، فقد تنفع وسيلة هنا، ولا تنفع هناك، إذ تختلف الخصوصيات الزمانية أو المكانية أو غير ذلك، ففي أمثال هذه الحالات ينبغي التأمل وتقليب الأمور للوقوع على الوسيلة المناسبة.

كلا المسؤوليتان موجودتان في الإسلام: الصلاة والصوم والتعبديات الأخرى من النوع الأول. أما الجهاد فمن النوع الثاني، فالمسلمون مفروض عليهم أن يدافعوا عن الإسلام وعن استقلال المسلمين، ولكن بأي وسيلة؟ بالسيف أم بالبندقية، أم بوسائل أخرى، فهذا لم يعينه الإسلام. إذ أن ذلك متعذر التعيين من قبل، إنما المسلمون هم المسؤولون عن تعيين أحسن الوسائل وأفضلها لتحقيق ذلك: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[1] ينبغي معرفة ما هي أفضل الوسائل في كل زمان.

ومسألة القيادة والإرشاد من النوع الثاني، فالمسلمون مسؤولون عن إرشاد بعضهم بعضاً وكل جيل مسؤول عن إرشاد الجيل الذي بعده، وعلى الأخص أولئك الذين هم في مركز القيادة، فمسؤولية هؤلاء أكبر، ومهما يكن ينبغي الوصول إلى الغاية، أي الهداية، أما الوسيلة فليست متعينة وليست هي مما يمكن تعيينها.

(١) سورة الأنفال، الآية ٦٠.

لقد جاء في الآية الكريمة: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾[١] فالمطلوب هنا هو الغاية، دون تعيين الوسيلة.

والإسلام لا يعين للهداية والقيادة بعينها بحيث تأخذ بعين الاعتبار الظروف والموانع والمقدمات والمقارنات، فهذا لا يمكن تقديرها من قبل، بسبب اختلافها باختلاف الأزمنة وغير ذلك. فالقيادة ليست مثل الصلاة أمراً تعبدياً يسير على وتيرة واحدة، فهي مثلاً، ليست من طراز الأوراد التي تقرأ على الملدوغ والملسوع، بحيث إن حافظ الورد يقرأه على كل من لسعته عقرب أو لدغته أفعى وفي جميع الحالات.

**٤٠. ما هو تفسير ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[٢]؟**

يتفق المفسرون على أن هذه الآية تذكر ثلاثة طرق مختلفة لدعون الناس إلى الهداية، وكل طريق قد خصص لظرف معين. حيثما ترد كلمة «رب» فثمة عناية بالتربية، أي ادع الناس إلى طريق ربك، الطريق الذي يربي الناس، بأي وسيلة؟ بالحكمة، والحكمة هي القول المتقن المحكم الذي لا يناله خدش ولا تشكيك، والحكمة بحسب اصطلاح المناطقة والحكماء هي القول الذي تكون مقدماته

(١) سورة التحريم، الآية ٦.
(٢) سورة النحل، الآية ١٢٥.

يقينية مئة بالمئة، أي ادع الناس إلى طريق الله بالبرهان والحكمة والعلم الخالص والعقل الخالص. يقول المفسرون: إن الدعوة بطريق البرهان والدليل العقلي والعلمي يختص بفريق من الناس لهم الاستعداد لذلك.

و«الموعظة الحسنة»، أي أدعهم إلى طريق ربك بالوعظ الجيد الطيب والنصائح اللطيفة المقبولة، [هنالك] أفراد ليس لهم الاستعداد لتقبل البيان العقلي والعلمي، فطرح المسائل العقلية والعلمية يربك رؤوسهم. إن طريق هداية هؤلاء هو الوعظ والنصيحة، بالتمثيل والحكاية، وأي وسيلة يمكن أن تلين قلوبهم. إن الوعظ والنصيحة يتحدثان مع القلب، بينما تتحدث الحكمة والبرهان مع العقل والفكر. إن معظم الناس أقرب إلى مرحلة القلب والمشاعر منهم إلى مرحلة العقل والفكر.

﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾، إذا اعترضكم معترض ليس من أهدافه اكتشاف الحقيقة ولا يسعى لفهم الحقيقة، إنما قد جاءكم للمجادلة والكلام والنقد، يتربص لالتقاط كلمة يتخذ منها مستمسكاً للمماحكة والجدل، فجادلهم، ولكن على خير ما تستطيع من مجادلة، ولا تخرج في جدالك عن محجة الحق، وكن منصفاً، ولا تتعام عن الحق، ولا تكذب. هذه الآية تذكر طرقاً مختلفة للإرشاد والهداية، وتبين لكل ظرف طريقةً وأسلوباً، أي إن وسائل الهداية متنوعة.

**٤١. ما هي علة اختلاف معاجز الأنبياء؟**

هنالك رواية معروفة تؤيد هذا القول، فعلى الرغم من أنها تختص بمعاجز الأنبياء التي لم تكن على وتيرة واحدة في مختلف العصور، ولكنها تؤكد مدّعانا، وهذه الرواية هي جواب سؤالٍ طرحه ابن السكّيت على الإمام الهادي عليه السلام.

وابن السكّيت من الأدباء المعروفين الذين يتردد ذكر اسمهم في الكتب كثيراً، وقد عاصر الإمام الهادي عليه السلام، أي عاش في عصر المتوكل. كان شيعي المذهب، وقد قتله المتوكل، ويقال: إن سبب قتله هو أنه كان معلم ولدي المتوكل: المعتز والمؤيد.

كان المتوكل يعلم أنَّ ابن السكّيت من الموالين للعلويين، وفي يوم من الأيام عندما كان ابن السكّيت عند المتوكل، دخل ابنا المتوكل فالتفت المتوكل - المعروف بسفك الدماء - إلى ابن السكّيت وسأله: أيهما أفضل؟ ابناي أم ابنا علي الحسن والحسين؟ فثار غضب هذا الرجل العالم من وقاحة المتوكل، فردّ عليه قائلاً: إنه يفضل قنبر غلام علي، على ابني المتوكل وعلى المتوكل نفسه، فأمر المتوكل غلمانه الأتراك أن يستخرجوا لسان ابن السكّيت من قفاه، فقتل على هذه الحال.

على كل حال، كان ابن السكّيت قد سأل الهادي عليه السلام: يا بن رسول الله، عندما بُعث موسى نبياً كانت معاجزه من قبيل تحول العصا حية، واليد البيضاء، وأمثالهما، بينما كانت معاجز عيسى

مختلفة، إذ كان يعالج الأعمى والأكمه ويحي الموتى، وأمثاله، أما معاجز نبينا فتختلف عن هذه كلها، إنها الكلام، القرآن، فلماذا؟

فأجابه الإمام: إن ذلك كان بسبب اختلاف الأزمنة والعصور، ففي عصر موسى كان السحر وأعمال السحرة هي التي تسيطر على العقول وتملأ العيون والقلوب، فكانت معاجز موسى شبيهة له، ولكنها كانت معاجز حقيقية، لا السحر الذي كان عندهم، أما في عصر عيسى، فقد كان هناك عدد من الأطباء المشهورين الذين كانوا يقومون بمعالجات محيرة تشبه المعجزات، فكانت أعناق الناس تشرئبُّ إلى من يستطيع القيام بأمثال تلك الأعمال، فجعل الله معاجز عيسى من ذاك اللون. أما عصر خاتم الأنبياء فقد كان عصر الكلمة. كان الناس ينجذبون بسحر الكلام البليغ الفصيح، لذلك جاء القرآن بأعلى صور الكلام الرفيع في إطار من البلاغة والفصاحة الكاملين. فأعجب ابن السكّيت بجواب الإمام، وقال: إنه بهذا قد استبانت له حقيقة الكلام، ثم سأل الإمام: يابن رسول الله، ما هي حجة الله اليوم، فقال الإمام: إنها العقل، فقال: والله هو الجواب![1].

وعلى ذلك يتبين أن سبب اختلاف معاجز الأنبياء هو اختلاف سبل الهداية في كل عصر وزمان، وإلا لكانت معاجز الأنبياء من آدم إلى خاتم الأنبياء واحدة – هذا إذا كان لآدم معاجز، وإذا كان

(١) الكافي، ج ١، ص٢٤.

من الأنبياء، إذ يقول بعضهم: إنه لم يكن نبياً - ولكن الأمر لم يكن كذلك، بل كان لكل نبي معاجز تتناسب والعصر الذي بعث فيه النبوة.

## ٤٢. ما هو الفرق بين أسلوب الأنبياء وأسلوب الفلاسفة في دعوة الناس؟

ثمة حديث معروف، ورد في «**الكافي**»، وكذلك لاحظت بعد التحقيق، أنه قد ورد في كتب أهل السنة أيضاً. يقول الحديث: «**إنّا معاشر الأنبياء أُمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم**»[١]، أي: إننا عندما نكلم أحداً من الناس، ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار مستواه العقلي والفكري، فمن كان ذا عقل أرجح، نكلمه بمستوى أرفع، ومن كان أقل من ذلك مستوى كلمناه بأقل من ذلك. فلا نكلم من كان على مستوى العامة من الناس، بكلام ملكوتي رفيع يدير رأسه، ولا نجيب الحكيم بما نجيب به على سؤال امرأة أميّة عجوز. إن الفرق الوحيد الذي يميز كلام الأنبياء عن كلام الفلاسفة هو أن مستوى كلام الفلاسفة مستوى معين واحد في كل الأحوال، إذ أنهم لا يملكون سوى بضاعة واحدة يعرضونها، كما إن زبائنهم من طبقة معينة واحدة، وهذا ينبئ عن عجزهم، إذ أنهم لا يستطيعون بيان مقاصدهم بغير هذه المجموعة من الاصطلاحات والتعابير

(١) الكافي، ج ١، ص٢٣.

الخاصة، وعلى ذلك فلا يفهم لغتهم سوى طبقة معينة.

يقال: إنه كان قد كتب على باب مدرسة أفلاطون المعروفة - وكانت هذه بستاناً تقع خارج مدينة أثينا يطلق عليها اسم أكاديمياً، وهو الاسم الذي يطلق اليوم على المجامع العلمية أيضاً - بيت من الشعر، مفاده:

إن من لم يقرأ الهندسة  لا مكان له في هذه المدرسة

أما مدرسة الأنبياء ففيها مكان لكلا أنواع التلاميذ الذين يجدون فيها كل أنواع البضائع، بضائع رفيعة، على أفلاطون أن يجلس على مقاعد التلمذة ليستوعبها، وبضائع أخرى تنفع حتى المرأة العجوز. لم يكتب على باب المدرسة النبوية: إنّ من يريد الاستفادة من هذا المكان عليه أن يكون على كذا مقدار من المعرفة. لا شكّ أن لمدى معرفته أثراً في استيعابه، فكلما كان أعلم وأكثر استعداداً كان أقدر على الإدراك والاستفادة، ومن كانت معرفته أقل استطاع أن يفهم على قدر معرفته، إذ «**إنا معاشر الأنبياء أُمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم**».

## ٤٣. ما هو الفرق بين تلاميذ الأنبياء وتلاميذ الفلاسفة؟

يتضح من هذا أن خير تلاميذ الفلاسفة هم أولئك الذين حضروا الدروس عليهم أنفسهم، بخلاف الأنبياء والأولياء. إن خير تلاميذ أفلاطون أو أرسطو هم الذين تلقوا الدروس منهم

بدون واسطة. إن خير من فهم كلام ابن سينا هو بهمنيار أو عبيد الجوزجاني، ولكن خير تلاميذ الرسول الأكرم هو علي بن أبي طالب أو جعفر الصادق. كيف؟ أفليس خير تلامذته هم الذين عاصروه؟ كلا، ليس الأمر هذا.

هناك أمر أشار إليه الرسول الأكرمﷺ قد يتضمن هذا المعنى، ولعلّ الذين سمعوا هذا منه في حينه لم يدركوا القصد منه، باستثناء عدد قليل من أصحابه، مثل سلمان، وأبي ذر والمقداد. قال الرسولﷺ: «**نصر الله عبداً سمع مقالتي**» وأضاف: «**رب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه**»[١].

الفقه، اصطلاحاً، حقيقة دينية، أو حكمة دينية، تستوجب التعمق في التفكير. والمقصود هنا هو الحقائق والكلمات التي كان الناس يسمعونها من الرسول. يقول: قد يسمع الناس مني هذه الكلمات والحقائق ويحفوظنها، ولكنهم ليسوا من أهل الفكر والتعمق والتحليل، فكثير منهم ينقلون هذه الكلمات والحقائق إلى الآخرين الذين هم أقدر من أولئك لفهم هذه الحقائق وإدراكها.

من ذلك مثلاً، أن يسمع أحدهم من النبيﷺ قوله: «**لا ضرر ولا ضرار**»[٢]، ولكنه لا يستطيع أن يدرك مفهوم هذه الجملة، ولكنه ينقلها إلى الجيل الذي بعده، وهذا إلى الذي بعده، وقد يكون الجيل

(١) الكافي، ج ١، ص٤٠٣.
(٢) المقنع، ص٥٣٧.

العشرون، مثلاً، أقدر على إدراك مفهوم تلك الجملة.

كذلك هو القرآن، لا يمكن القول إن القدامى كانوا أقدر على فهمه، بل العكس هو الصحيح. إن من إعجاز القرآن هو أنه دائماً متقدم على التفاسير التي تكتب له ويتجاوزها، أي إن التفاسير قد كتبت للقرآن في كل زمان، ثم عندما تقدم العلم والمعرفة في الزمان التالي، وجدوا أن القرآن أعلى من ذاك التفسير، وأنه يتجاوزه.

## ٤٤. ما هي مواصفات كل من الجيل الصالح والجيل الفاسد؟

ثمة آيات من سورة الأحقاف المباركة ترسم صورتين لجيلين، جيل صالح وآخر منحرف، ولكن لا يمكن القول بأن الجيل التالي يكون دائماً أكثر فساداً من الجيل السابق له، وأن الدنيا تسير نحو الفساد، ولا يمكن القول كذلك بأن الجيل التالي أكمل من جيله السابق، وأنه لا يناله الانحطاط.

هـذه الآيـات: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[1].

تصف هذه الآيات طراز تفكير الجيل الصالح. يقال: إن هذه الآيات جاءت بخصوص سيد الشهداء عليه السلام وأنه بالطبع مصداق

(١) سورة الأحقاف، الآية ١٥.

كامل لها، غير أنها جاءت عامة، وهي تشير إلى عدد من مميزات الجيل الصالح. منها روح الشكر والعرفان بالجميل على نعم الله وهباته: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ إنه يرى هذه النعم التي أنعم الله بها عليه وعلى جيله السابق، فيطلب من الله القوة على إيفائه الشكر والتقدير، وعلى الإفادة من تلك النعم بما يرضي الله، وشكر النعمة هو أن نستفيد من تلك النعمة بما هو خليق بها.

ومنها أنه يطلب من الله أن يوفقه إلى العمل الذي يفيد ويرضاه الله: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾. ومنها أيضاً اهتمامه بالجيل التالي لكي يكون صالحاً، فيطلب من الله: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾. والميزة الرابعة هي روح التوبة والندم على تقصيره وقصوره في الماضي: (إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾. وأخيراً التسليم بما يقرّه الله ويشرعه، إذ أنّ التخلف عن ذلك مدعاة للهلاك: ﴿وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾. ويقول الله عن هذا الجيل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾[1]. هنا تأتي صيغة الجمع، أي إن المقصود ليس فرداً معيناً بذاته. والآية التي تليها تتحدث عن جيل فاسد منحرف ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ

(١) سورة الأحقاف، الآية ١٦.

وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[1].

هذا هو الجيل المغرور، الجيل غير الناضج، الجيل الفج. ما إن وصلت أذنيه كلمتان حتى لم يعد يلتزم شيئاً، ليس عبداً لله، يتأفف من والديه، يحقرهما، يستهزئ بأفكارهما ومعتقداتهما، ويضحك من قولهما إن هناك يوم قيامة، وبعثاً وعالماً آخر، وحياة أخرى، مع ان الأجيال السابقة جاءت وعاشت، وماتت، وما عادت. والده المتدينان اللذان لا يطيقان سماع ما يخالف الدين، يسمعان عزيزهما يواجههما بكلام من هذا القبيل، يحزنهما ذلك، ويصرخان فيه: ﴿وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾. إن من أشد الحالات إيلاماً هو أن يرى الوالدان فلذة كبدهما وقد كفر بدينه وارتدّ عنه، فيرفعان أصواتهما نحو السماء ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ ﴾ وهو يقول: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾. هذه آيات تبين حال جيلين مختلفين، جيل صالح، وآخر فاسد.

(١) سورة الأحقاف، الآية ١٧.

## الباب الثاني:

# أسئلة من كتاب الفكر الإسلامي وعلوم القرآن

## ٤٥. عدّد بعضاً من مواطن الخطأ التي يقع فيها الإنسان بحسب القرآن الكريم؟

من مواطن الخطأ التي يذكرها القرآن: اتّخاذ الإنسان الظنّ بدل اليقين.

فلو قيّد الإنسان نفسه ليتّبع اليقين في جميع المسائل، ولم يقبل الظنّ بدل اليقين، فلن يُخطئ أبداً[١].

لقد شدَّد القرآن كثيراً حول هذا الموضوع، وقد صرَّح في إحدى الآيات أنَّ أكبر خطأ للفكر البشري هو اتّباع الظن.

وفي مقام آخر يخاطب الرسول ﷺ: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾[٢].

ويقول في آية أخرى: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ﴾[٣]؛ إنَّها أوَّل ذكرى للبشر طوال التاريخ الفكري، ذكرها له القرآن ونهى البشر عن مثلِ هذه الأخطاء.

---

(١) لا بدَّ من ملاحظة أنَّه في الأمور الظنّية والاحتمالية، وفي الموارد التي لا يمكن الحصول على اليقين، يجب الأخذ ذلك الظن أو الاحتمال نفسه. ولكن يجب قبول الظن والاحتمال بدل الاحتمال، ولا يمكن الأخذ بالظنّ والاحتمال بدل اليقين. هذا المورد الثاني الذي يدعو إلى الخطأ.

(٢) سورة الأنعام، الآية ١١٦.

(٣) سورة الإسراء، الآية ٣٦.

الموطن الثاني للخطأ في مادة الاستدلال، وخصوصاً في المسائل الاجتماعية هو مسألة التَّقليد.

يعتقد كثيرٌ من الناس بالأُمور التي يعتقدها المجتمع، أي إنَّ الموضوع الذي يتقبَّله المجتمع، أو تقبله الأجيال السالفة، يقبلونه بدليل أنَّ الأجيال السالفة قد رضيت وآمنت به[١].

إلّا أنَّ القرآن يدعونا لكي نقيس كلّ مسألةٍ بمعيار العقل، ولا نعتبر بما صنعه الأجداد الأقدمون، أو أن نتركها تماماً.

فكم من أمورٍ كانت معتبرة في الماضي مع أنَّها خاطئة ولكن الناس قبلوها، وكم من أمورٍ صحيحةٍ في الأزمنة البعيدة ولكن النَّاس امتنعوا عن الاعتراف بها بسبب جهلهم.

في قبول هذه المسألة لا بدَّ من الاستعانة بالعقل والفكر، وعدم اتّباع التَّقليد الأعمى. والقرآن يقارن كثيراً بين أتباع الآباء والأجداد وبين العقل والفكر.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[٢].

يؤكّد القرآن أنَّ قدم فكر ما، ليس دليلاً على خطئه ولا يوجب صحَّته، وإنَّ القِدم يجري في الأُمور المادّية، ولكن حقائق الوجود لن تصبح قديمةً متروكةً مهما مضى عليها الزّمان.

(١) يوجد هذا الأمر في أحد أقوال «بيكن»، وعندما يعرّف أحد الأصنام التي يتحدّث عنها بالصنم الاجتماعي أو الصنم العُرفي، فإنَّ غرضه هذا التقليد الأعمى.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٧٠.

فحقيقة مثل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1]، تكون صادقةً محكمةً ثابتةً طوال عمر الدُّنيا.

يقول القرآن: إنَّه لا بدَّ من مواجهة المسائل بسلاح العقل والفكر، ويجب أنْ لا يترك الإنسان عقيدةً سليمةً، بدليل مخالفة الآخرين له، كما يجب أنْ لا يقبل عقيدةً، بمجرَّد تعلّقها بهذه الشّخصية المعروفة، أو تلك الشخصيّة الكبيرة، ولا بدَّ أن يحقّق الإنسان بنفسه في كلِّ المسائل[2].

العامل الآخر الذي يؤثّر في تكوّن الخطأ ويذكره القرآن، هو اتّباع هوى النّفس والميول النفسيَّة، يقول مولوي (الشَّاعر): «**عندما جاء الغرض (هوى النَّفس) احتجب الفنّ، وانتقلت مئات الحجب من القلب إلى العين**».

لو لم يتخلّ الإنسان - في أيّ أمر - من شرّ الأغراض النفسيّة، لا يستطيع أنْ يتفكَّر تفكيراً سليماً؛ أي: إنَّ العقلَ يستطيع العملَ الصحيح، في بيئة لا توجدُ فيها الأهواء النّفسية.

وللقرآن إشاراتٌ كثيرةٌ في موضوع متابعة هوى النّفس، نكتفي بذكر مورد واحد، يقول القرآن: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾[3].

(١) سورة الرعد، الآية ١١.

(٢) يجب أنْ لا يشتبه بين موضوع تقليد الآباء والأجداد، أو الموضة العصرية، أو صبغة المجتمع التي نهى عنها القرآن بشدّة، وبين موضوع تقليد المجتهد الأعلم العادل في الفقه؛ لأنَّه أمر واجب ديني على رعاية التخصّص والاستفادة من العلم التخصصي.

(٣) سورة النجم، الآية ٢٣.

**٤٦. ما هي خصائص القلب من وجهة نظر القرآن؟**

يُعتبر القلب من وجهة نظر القرآن وسيلة للمعرفة أيضاً. وإنَّ القسم الأكبر من نداءات القرآن تُخاطب قلب الإنسان. تلك النّداءات التي لا طاقة لسماعها إلَّا بواسطة إذن القلب. ولذلك، فإنَّ القرآن يؤكّد كثيراً بالمحافظة على هذه الوسيلة، والعمل على تكاملها، نلتقي في القرآن كثيراً بأُمورٍ مثل تزكية النّفس وصفاء القلب.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾[١] و﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٢].

وحول إنارة القلب يقول: ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾[٣] و﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[٤].

وفي مقابل ذلك، فإنَّ الأعمال القبيحة تُسوّد روح الإنسان، وتسلب منه الاتجاهات الظّاهرة النّقية، وقد تكرّر هذا الحديث في القرآن. يقول عن لسانِ المؤمنين: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾[٥].

وفي وصف المسيئين يقول: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٦].

﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[٧].

---

(١) سورة الشمس، الآية ٩.
(٢) سورة المطففّين، الآية ١٤.
(٣) سورة الأنفال، الآية ٢٩.
(٤) سورة العنكبوت، الآية ٢٩.
(٥) سورة آل عمران، الآية ٨.
(٦) سورة المطففين، الآية ١٤.
(٧) سورة الصف، الآية ٥.

ويتحدَّث القرآن عن قساوة القلوب وتختّمها: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ﴾[1]، ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴾[2]. و﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[3]، و﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾[4].

كُلُّ هذهِ التأكيدات تبيّن أنَّ القرآن يريد جوّاً روحيّاً، ومعنويةً عاليةً للإنسان، ويُوجب على كلَّ فردٍ أنْ يُحافظ على سلامة ونقاء هذا الجو.

وبالإضافة إلى ذلك، ففي الجوّ الاجتماعي المريض، وحيث تصبح أكثر جهود الإنسان لنظافة البيئة عقيمةً غير موفّقة؛ يؤكّد القرآن على أنْ يستغلّ البشر كلّ طاقاته في سبيل تصفية وتزكية بيئته الاجتماعية.

يصرِّح القرآن بأنَّ ذلك الإيمان والعشق والمعرفة، والتوجّهات السّامية، وتأثيرات القرآن، وقبول نصائحه؛ كلّ ذلك يرتبط بابتعاد الإنسان والمجتمع الإنساني عن الدنايا، والرذائل والأهواء النفسيَّة والشهوات.

مكتوبٌ في كتب السيرة أنَّ شخصاً حضر عند رسول الله ﷺ وقال: إنَّ لي أسئلة أريد أن أعرضها عليكم، فسأل الرسول ﷺ، هل

(١) سورة البقرة، الآية ٧.
(٢) سورة الأنعام، الآية ٢٥.
(٣) سورة الأعراف، الآية ١٠١.
(٤) سورة الحديد، الآية ١٦.

تريد أنْ تسمع أجوبة أم ترغب في طرح الأسئلة فقط. فأجاب أنَّه يريد الجواب.

فقال النبي (ما معناه): جئت تسأل عن البرّ والإحسان والإثم والعدوان؟ أجاب: نعم؛ فجمع النبيﷺ ثلاثة أصابعه ووضعها على صدر الرجل براحة قائلاً: «**استفتِ قلبك وإنْ أفتاك المفتون**»[1].

ثم أضاف (ما معناه) لقد خُلق القلب بحيث يرتبط مع الحسنات ويرتاح معها، ولكنّه يضطرب وينزجر من السيِّئات والقبائح، تماماً مثل بدن الإنسان، فإذا ورده شيء لا يتجانس معه يغيّر نظامه وهكذا روح الإنسان تتعرَّض للاختلال والاضطراب بواسطة الأعمال السيِّئة.

## ٤٧. هل يمكن للإنسان العادي غير المعصوم أن يصل إلى اليقين؟ اذكر قصة من حياة النبيﷺ.

عن إسحاق بن عمَّار قال: سمعتُ أبا عبد الله عليه السلام يقول: «**إنَّ رسول اللهﷺ صلَّى بالناس الصُّبح، فنظر إلى شاب في المسجد وهو يخفق ويهوي برأسه، مصفرّاً لونه، قد نحف جسمه وغارت عيناه في رأسه، فقال له رسول اللهﷺ: كيف أصبحت يا فلان؟**

قال: أصبحت يا رسول الله موقناً، فعجب رسول الله من قوله، وقالﷺ: «**إن لكُل يقين حقيقة، فما حقيقة يقينك؟**»

(١) تاريخ مدينة دمشق، ج ١٠، ص١١١.

فقال: إنَّ يقيني يا رسول الله، هو الذي أحزنني وأسهر ليلي، وأظمأ هو اجري؛ فعزفت نفسي عن الدُّنيا وما فيها، حتى كأنِّي أنظر إلى عرش ربِّي وقد نُصب للحساب، وحُشر الخلائق لذلك وأنا فيهم؛ وكأنِّي أنظر إلى أهل الجنَّة يتنعمون في الجنَّة ويتعارفون، على الأرائك متَّكئون، وكأني أنظر إلى أهل النَّار وهم فيها معذَّبون مصطرخون، وكأنّي الآن أسمع زفير النَّار يدور في مسامعي.

فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**هذا عبدٌ نوَّر الله قلبه بالإيمان**»؛ ثم قال له: «**إلزم ما أنت عليه**»[1].

فقال الشاب: ادعُ الله لي يا رسول الله أنْ أرزق الشهادة معك، فدعا له رسول الله ﷺ فلم يلبث أنْ خرج في بعض غزوات النبي، فاستشهد بعد تسعة نفر وكان هو العاشر[2].

## ٤٨. ما معنى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾؟

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾[3]، إنَّني أؤكد كلمة الشّرح لكي نعرف معنى (شرح الصدر). لقد وردت هذه الكلمة في القرآن في صور مختلفة، من ذلك إنَّ القرآن يقول عن موسى بن عمران إنَّه عندما بعث وقيل له: إنّك رسول الله، اذهب إلى فرعون... كان أوَّل طلبٍ له من الله تعالى أن قال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم، ج ١، ص٢٨٧.
(٢) أصول الكافي، (كتاب الإيمان والكفر)، ج٢، ص٥٣.
(٣) سورة الشرح، الآية ١.

لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾﴾[1].

ونقرأ في مكان آخر: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ﴾[2].

كانت الآية الأُولى تتعلَّق بشخص الرسول ﷺ، وآية ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ طلب موسى. فموسى يطلب من ربّه أن يشرح له صدره. فشرح الصدر لا يختص بالرسول ﷺ، واستجاب الله له، بالإضافة إلى أن من يهتدي للإسلام فإن الله يشرح له صدره كما نصت الآية الثانية فيكون واضحاً أنَّ (شرح الصدر) ليس ممَّا يقتصر على الأنبياء، فكلُّ من اهتدى إلى الإسلام، وكلُّ من أشرق نور الإسلام على قلبه، يكون قد (شرح صدره) في الواقع، فما هو شرح الصدر هذا؟

سعة الصدر تعني كثير التحمُّل، فهي كناية عن قدرة المرء على التحمّل والصَّبر. أي إذا أراد شخصٌ أن يصبح رئيساً، كثير التعامل مع الناس، يدبِّر شؤونهم، فعليه أن يكون واسع الصدر، قادراً على التحمُّل. فالشَّخص الذي لا يتَّسع صدره، السّريع التأثير والتهيّج، أي تأثّر الأعصاب، لا يمكن أن يصبح مديراً ولا رئيساً، يدير جماعةً من النَّاس، مهما يكن نوع هذه الإدارة، خُذْ مديراً لمدرسة،

(١) سورة طه، الآية ٣٤.

(٢) سورة الأنعام، الآية ١٢٥.

أو معلماً في الصفّ يدير التلاميذ، فإذا لم يتَّسم بسعة الصدر، لم يستطع إدارتهم. والرجل ربّ الأسرة إذا أراد أن يديرَ شؤون أسرته الداخلية، يلزمه أن يكون واسع الصدر. وكلَّما كان مجال إدارة الرجل أوسع، تطلَّب منه ذلك صدراً أوسع، وحلماً أكبر. وهذا هو ـ على وجه العموم ـ المعنى الذي يفسر به المفسرون هذه الكلمة، إذ يقولون إنَّ الله قد منَّ بها على الرَّسول الكريم ﷺ، فهو يذكره بهذه النعمة، نعمة الصبر الوافر، نعمة سعة الصدر.

**٤٩. ما معنى ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾؟**

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾[1]، أي إنَّنا رفعنا عنك الحمل الذي يثقل عليك، وهذه نعمة الله الثّانية. فما هو الحمل الثقيل هذا؟ إذا ما وضعنا سورة الشرح إلى جانب تلك الآيات التي خاطب بها موسى ربه نجد أنَّها تصدق بعضها بعضاً. لقد قال موسى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾﴾ أي اجعلْ مهمَّتي سهلةً. فما هي مهمَّة موسى؟ مهمَّته الدَّعوة، دعوة الناس وهدايتهم، وهي مهمة صعبة.

﴿وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾ أي اجعلْ كلامي يسيراً، يفهم الناس منه قصدي، أي إنَّهم إذا فهموني وأدركوا ماذا أقول، وإلى أين أريد أن أقودهم، فهذا يكفي.

﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي

(١) سورة الشرح، الآية ٢.

﴿٣٢﴾ فما معنى الوزير؟ لقد استعملت هذه الكلمة مع الملوك استعمالاً كثيراً جعل معناها يقتصر على السائر خلف الملك والممتثل لأوامره. إلَّا أنَّ معنى الكلمة غير ذلك. إنَّ معناها المعين، أي الذي يعين غيره على رفع حمل ثقيل. أنتم أيضاً لو أتيتم في محل عملكم بمن يساعدكم على تخفيف أعباء العمل عن كواهلكم، يكون هذا وزيراً لكم. وهذا هو المعنى نفسه الذي وصف به الرسول الكريم صلى الله عليه وآله عليّاً عليه السلام باعتباره وزيراً له، أي إنَّه يساعده في حمل هذا العبء الثقيل، ولذلك قال في حقه: «**عليّ وَزيري، وَوصيي، وَقاضي دَيني**».

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ بعلي، فلذلك هو الحق الواقع. أي إنَّنا خففنا عنك هذا العبء بهذا الرجل الذي هو منك بمنزلة هارون من موسى، فيه رفعنا عنك الحمل. أولم يقل الرسول الكريم صلى الله عليه وآله: «**يا علي، أنت منِّي بمنزلة هارون من موسى**»[1]. وهذا من الأحاديث المتواترة عن الشيعة والسنَّة.

## ٥٠. بماذا أجاب النبي صلى الله عليه وآله الإمام علي عليه السلام عندما لم يصطحبه معه إلى تبوك؟

فقد روي أنَّ النبي كان يصطحب عليّاً في كل حرب يخوضها ضد المشركين، ولكنّه عندما عزم على التوجه إلى حرب تبوك،

(١) عيون أخبار الرضا، ج ٢، ص١٢.

لم يأخذ علياً معه، وذلك لأنَّها لم تكن حرباً فعلية، بل كانت حرباً استعراضية، لإظهار قوَّة المسلمين وشوكتهم أمام شمال جزيرة العرب في سورية. فذهبوا وعادوا، وكان النبي قد أبقى علياً بمكانه في المدينة، فأظهر علي إنَّه كان يفضل لو ذهب معه، فقال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «**يا علي ألا تحب أن تكون خليفتي، فأنت منِّي بمنزلة هارون من موسى**» باختلاف واحد، هو «**إلّا أنَّه لا نبي بعدي**». وهذا يعني إنَّ هارون كان نبياً، إذ إنَّه كان بمقدوره أن يكون نبياً بعد موسى. ولكنَّك لا تكون نبياً لأنَّه لا نبي بعدي، فكل ما بيني وبينك من روابط هي ما كانت بين موسى وهارون. فعليٌّ وزيرُ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم[1].

## ٥١. ما هو القانون الذي نستنتجه من آية ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾؟

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾[2]: المعنى الكلي هو أنَّ الصعوبة تأتي ومعها السهولة، والسهولة في الصعوبة. وتشير الآيتان إلى مهمة النبي: كم كانت صعبةً في البدء، وكم كان حملك ثقيلاً حتى فرقعت عظام ظهرك. وكان العدو يسعى لأن يمحو اسمك محواً، فصار العكس. هذا هو قانون الله.

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ مع الصعوبة سهولة، وإنَّ الصعوبة تليها السهولة،

(١) الأمالي، الشيخ المفيد، ص٥٧.
(٢) الشرح، الآيات ٥-٦.

نهاية ظلام اللَّيل صباحٌ أبيض، ولكن ماذا يعبِّر القرآن عن ذلك بقوله إنَّ الصعوبة مع السهولة؟ المقصود هو القول إنَّ ليس هناك تعاقب، أي ليس هناك أمر صعب، ثم يعقبه أمر سهل بالتناوب، ليس الأمر كذلك، بل إنَّ السهولة وليدة الصعوبة، والصعوبة أو السهولة. أي إنَّكم إذا أردتم بلوغ اليسر والرفاه، والسعادة، فلا يتاح لكم ذلك ما لم تعبروا طريق الشّدائد. إنَّه لتعبيرٌ عجيب، وهي كليّة عجيبة. فعلى الرّغم من أنَّ البدء يخص شخص الرسول ﷺ، والنّعم التي أنعم الله بها عليه، شرح صدره، ورفع عنه الثّقل، ورفع اسمه، ولكن على أيّ قانون؟ أعمالُ الله كلُّها تجري على وفق القوانين والسُّنن، فما هذه القوانين والسُّنن؟

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾: هذا هو القانون، ونقرأ في سورة السجدة: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾[1].

أي إنَّنا عيّنا منهم قادةً يرشدون النّاس بأمرنا. لماذا؟ لأنّهم صبروا في الشدائد، وآمنوا بآياتنا. الإيمان مع العمل في الشّدائد.

## ٥٢. هل ليلة القدر مستمرة حتى يومنا هذا؟ وهل هي مختصة بالأنبياء فقط؟ ولماذا لم تحدد بيوم معين؟

نعود الآن إلى «**ليلة القدر**» فبحسب قول القرآن، ليلة القدر

(١) سورة السجدة، الآية ٢٤.

هذه التي هي خيرٌ من ألف شهر، هي ليلةٌ واحدةٌ في الحياة كلّها، وهي تلك اللّيلة التي نزل فيها القرآن على الرّسول ﷺ. يقول كثيرٌ من أهل التسنُّن إنَّ الأمر ليس كذلك، وإنَّ ليلة القدر أكثر من ليلة واحدة، تعود كلّ سنة طيلة حياة الرسول ﷺ، وعندما رحل الرسول ﷺ رحلت ليلة القدر أيضاً (هذا كلام لا أساس له).

إذن فليلة القدر مستمرة. هل كانت ليلة قدر للنبي؟ يقول النبي، نعم كانت، وكل الأنبياء كانت لهم ليالي قدر. ترى هل كانت ليلة قدر قبل أن يوجد إنسان أو نبي على وجه الأرض؟ هذا أمر مشكوك فيه. ليلة القدر تعني ليلة الإنسان الكامل، ليلة الولي الكامل. ولكن ما الذي نفهمه من القرآن نفسه؟ بعد أن قال القرآن ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ ثم بعد ذلك يقول ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ ولم يقل ليلة القدر كانت خيراً من ألف شهر. والأهم من هذا هو إنَّ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ جاء فيها الفعل بصيغة الماضي، ولكنَّه بعد ذلك يستعمل المضارع ليدلُّ على الدوام والاستمرار، فيقول ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾[1] أي إنَّ الملائكة والروح ينزلون بأمر ربهم إلى الأرض، فهي ليلة لم نقطع فيها الارتباط بين السماء والأرض، إنَّها ليلة الارتباط بين السَّماء والأرض، حيث لا ينزل ملك واحد أو اثنان، بل الملائكة والروح (ينزلون)، بصيغة المضارع وليس (نزلوا) بصيغة الماضي.

(١) سورة القدر، الآيات ١-٤ (الآيات المتقدمة).

إنَّ الذين لا يقولون باستمرارية ليلة القدر قليلون.

يقول الأئمَّة عليهم السلام اسألوا هؤلاء، عندما تنزل الملائكة والروح ليلة القدر، إلى أين تنزل؟ هل تنزل إلى الأرض، أم أنَّها تنزل على القلب؟ إنَّ الملائكة تنزل على الإنسان، على قلبه، فينبغي أن يكون قلب الإنسان قلباً جديراً بنزول الملائكة عليه. إنَّ النُّزول لا معنى له غير هذا. فالقضية هي أنَّ ليلة القدر ليلة الإنسان الكامل. ولكن لماذا تكون ليلة القدر في شهر رمضان؟ في الإسلام، لا معنى لأن تكون ليلة القدر في غير شهر رمضان.

أما أيّ ليلةٍ من ليالي شهر رمضان هي ليلة القدر، فإنَّ الروايات لم تبيِّن ذلك، وفي ذلك بعض التعمُّد. هل ليلة القدر هي الليلة التّاسعة عشرة؟ أم الليلة الحادية والعشرون؟ أم الليلة الثالثة والعشرون؟ أم إنَّ بعض المسائل تتهيأ في الليلة التاسعة عشرة، ثم تبرم في الليلة الحادية والعشرين، ثم تصل مثلاً، مرحلة التوقيع عليها في الليلة الثالثة والعشرين؟ وهناك احتمال آخر في عدم تعيين ليلة القدر، وذلك إنَّ ليلة القدر في كل سنة تخص الإمام وتتعلق بحالته في تلك السنة فقد ينهي الإمام دورته السنوية في الليلة الحادية والعشرين، أو في الليلة الثالثة والعشرين. أي إنَّ الدورة لا تقل عن ١٩ يوماً، وهي تنتهي في واحدة من هذه الليالي، وعندئذٍ هل يكون للإنسان الكامل يد في مقدرات العالم أو الناس؟ قليلون أولئك الذين يصدقون أن تكون روح هذا الجرم الصغير

لوحاً للتقديرات الإلهية، إنّما نحن لا نصدق، لأنَّنا لا نعرف الإنسان، فلا نعرف إنَّ لوح روح الإنسان الكامل هو لوح التقدير الإلهي، وإنَّه ههنا يتحقق النزول والتقدير.

وبناءً على ذلك فإنَّ ليلة القدر هي ليلة الإنسان الكامل، وإنَّ القرآن قد نزل في تلك الليلة، وإنَّ النبي كانت له ليلة قدر في كل سنة، وكذلك الإمام، وإنَّ الأرض لا تخلو أبداً من الإنسان الكامل، وإنَّ السنة لا تخلو من ليلة القدر، وإنَّ ليلة القدر لا تخرج عن شهر رمضان.

### ٥٣. ما هو سبب نزول سورة العاديات؟

جاء في الأخبار أنَّ هذه الآية نزلت في إحدى الغزوات، وتدعى «**ذات السلاسل**» وهي غزوة وقعت عندما هاجم المشركون المسلمين، فأرسل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم المسلمين لقتالهم بقيادة أبي بكر مرة، وبقيادة عمر مرة أُخرى. واقترح عمرو بن العاص على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أن يلجأوا إلى المكر والخديعة لإنهاء الحرب. غير أنَّ هذا لم يفلح أيضاً. وأخيراً عهد الأمر إلى علي عليه السلام فاختار طريقاً غير مطروق عبر الجبال، فعبروها ليلاً، وعند الصبح، بين الطلوعين، انقضوا على العدو، وقضوا عليه[1].

وفي اليوم نفسه جاء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى المسجد في المدينة -

(١) مناقب آل أبي طالب، ج ٢، ص١٢٩.

وهي تبعد عن موقع المعركة كثيراً - لأداء الصلاة، فقرأ سورة العاديات بعد سورة الفاتحة.

في هذه السورة، كما في سورة الزلزال، تذكير بيوم القيامة، وإيقاظ للشعور بالرجعى إلى الله في الإنسان. نثير هذه السورة في الإنسان روح الجلاد والحرب بشكل عجيب.

وانتبه المسلمون الذين كانوا يصلّون مع النبي أنَّه بعد سورة الفاتحة أخذ يقرأ آيات جديدة لم ترد على لسانه من قبل:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥﴾...[١].

قالوا له بعد انتهاء الصلاة: يا رسول الله! لم نسمع بهذا من قبل. إنَّها المرَّة الأُولى التي نسمع منك فيها هذه الآيات!

فقال رسول الله : اليوم نزل عليَّ جبرائيل وأخبرني بأنَّ عليّاً قد قاد المسلمين من النقطة الفلانية، وأنَّه سيعود منتصراً. وكان الناس يعلمون أنَّ المسلمين كانوا هناك في محنة[٢].

**٥٤. ما معنى ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[٣]؟**

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾: أي ما أكفر الإنسان بنعمة ربّه، فبدلاً

(١) سورة العاديات، الآيات ١-٥.
(٢) مجمع البيان، ج ١٠، ص٤٢٢.
(٣) سورة العاديات، الآيات ٦-٨.

من أن يحمد الله على نعمه، يجحد بها. مثل الطفل الذي يريد له أبواه تمام الصحة والشفاء، فيعدَّان له دواءً أو طعاماً، فيرفضه ويريد أن يحطم كل شيء.

يقول المفسرون، وهم على حق، إنَّ آية: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ إشارة إلى الناس الذين يريدون مهاجمة المسلمين في المدينة، بدلاً من أن يتقبلوا الدعوة التي يدعوهم بها الرسول ﷺ. فهذه النعمة التي يهبها الله لهم يرفضونها ويحملون على المدينة. أهكذا نشكر النعم؟ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾.

(كنود) نعني (كفور): أي الكفر بالنعمة، والتنكر لها.

﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾: يمكن تفسير هذه الآية على وجهين:

الأوَّل: إن ﴿لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ تعني إنَّه شديد الحب للمال.

والثاني: هو أنَّه شديد جداً، أي بخيل، لماذا؟ لأنّه يحب المال حباً جماً، وقد عبَّر القرآن هنا عن المال بالخير، وهو تعبير كثير وروده في القرآن، حيث يعبر عن الثروة بالخير ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ﴾[1].

أي إنَّ الثروة بحدِّ ذاتها ليست شراً، إنَّما الانهماك بها هو الشر، على الإنسان أن يكون حراً. وألا يكون تعلقه بشيء في الوجود إلَّا بالله. العلاقة قيد وتقيد، مثل الحبل في رقبة الفرس، فيربط بمكان

(١) سورة البقرة، الآية ١٨٠.

ما في الإسطبل أو بشجرة. على الإنسان ألَّا يربط نفسه بشيء. إنَّ تعلق الإنسان بالله هو الحرية عينها. لماذا؟ لأنَّ الإنسان كائن غير متناه فما دام الإنسان مع الله، بقي الطريق أمامه مفتوحاً، وكلَّما سار انفتح الطريق أكثر، ولو سار إلى الأبد لما انتهى الطريق أمامه.

ولكن المال، بخلاف الأُمور الأُخرى، يثبت المرء في مكانه، حسب القول السائد، فيوقفه عن التحرك، ويسد أمامه طريق السير نحو التكامل. والقرآن يعبر عن الثروة بالخير، لأنَّ الثروة ليست شراً بذاتها، فلا ينبغي القول بأنَّ الثروة شر، فلماذا يمنحها الله للناس؟ الجواب، كلا، إنَّ الثروة ليست شراً، بل تعلقك بها، حب المال الذي فيك (وهو الحب والعلاقة) هو الشر. فعليك ألا تطوق رقبتك به.

ثمَّ إنَّ الله قد خلق في الإنسان حبّ الخير حباً مطلقاً. والخير المطلق هو الله، فأنت قد تركت الخير المطلق، وجئت تتمسّك بشيءٍ محدودٍ لا ينفع إلَّا كوسيلة، ونسيت الغاية.

### ٥٥. ما هو المقصود من «العصر» في سورة العصر؟

إنَّ الآية الأُولى تتألَّف من كلمتين، الواو و(العصر)، الواو معروفة. والكلام على (العصر). فأيُّ عصر هو المقصود؟

هنالك احتمالان من بين الاحتمالات المذكورة، وأحد هذين الاحتمالين يرد أكثر من الآخر:

الاحتمال الأول: هو هذه الفترة المعينة من النهار، وهي الربع

الأخير من النهار، وهي الفترة التي تقابل الضحى[1].

والاحتمال الثاني: لا يُعتبر العصر كجزء من النهار، بل كجزء من التاريخ، كأن نقول (عصر الرسولﷺ)، وهذا يعني فترةً من التاريخ تشمل فترةَ دورة حياة الرَّسولﷺ، أو باعتباراتٍ مختلفة أُخرى، كأنْ تقومَ كلُّ مجموعةٍ بتقسيم التَّاريخ إلى عصر العبودية، أو عصر الإقطاع، أو عصر الرأسمالية، أو قد يقسم بعضهم الآخر التاريخ إلى عصر حجري، وعصر الحديد، وعصر الذرَّة، وعصر الفضاء، الخ...

والحالة التي نحن بصددها هي عصر النبيﷺ، أي أقسم بعصر الرسولﷺ.

لطالما قلنا إنَّ الزّمان من حيث كونه زماناً لا يختلف جزء منه عن جزء آخر. فالزّمان امتداد واحد من الأزل إلى الأبد، ولا فرق بين أجزائه، ولكن الاختلاف يأتي من حيث وجهة نظر الإنسان إلى أيّ جزءٍ من أجزاء الزّمان، فالزّمان من حيث ارتباطه بالإنسان، ومن حيث ارتباط الإنسان به، يتفاوت في الاختلاف، فثمَّة عصر هو عصر الإنسانيّة والتَّفتح، عصر الإنسان الكامل، فلهذا العصر مثلاً، لونٌ من القدسيّة.

فإذا أراد القرآن أن يبيِّن أهميَّة ذاك العصر، يقسم به، فيقول:

(١) عندما ترتفع الشمس كثيراً في السَّماء، يطلق على هذه الفترة اسم «**الضحى**». ثم إذا أخذنا النصف الثاني من النهار بعد الظهر، وقسمناه إلى قسمين، يسمى القسم الثاني باسم «**العصر**».

أقسم بعصر الرسولﷺ وقد يكون زماناً ما، من هذا المنظور، إمَّا لزمان آخر، أي إنَّه يؤثر في خلق زمان آخر، مهما كان ذاك العصر سيّئاً أم رديئاً. أي قد يظهر عصر طيب، يكون خلال دورة التاريخ أُمّاً، أو أرضية للطيبة والخير على امتداد التاريخ.

أي إنَّ الإنسان عندما ينظر إلى ذلك العصر، ويمعن النظر فيه، يرى أنَّ كل ما كان في ذلك العصر يلهمه الخير، والطِّيبة، والسَّعادة، أو قد يكون على عكس ذلك تماماً، أي قد يكون عصراً من العصور المظلمة في التاريخ، عصرُ ظلامٍ وحلكةٍ آسنةٍ قذرةٍ، ومع ذلك يكون أُمّاً لعصور سودٍ سيّئة.

﴿وَٱلۡعَصۡرِ﴾، قسم بذاك العصر النيّر، العصر المسخّر للبشر، العصر المبارك الكثير الخير الذي بزغ على البشر. أي عصر يبلغ من حيث قدرته على استيلاد البركة شأن تلك السنوات الثلاث والعشرين من عصر الرسولﷺ. ذلك العصر الذي يقسم به القرآن.

## ٥٦. ما هو العمل الصالح في قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[1]؟

ما هو العمل الصالح. وأي تعبير هذا؟ إنَّ للفقهاء وعلماء الأُصول مصطلحات، منها: العناوين الأولية والعناوين الثانوية،

(١) سورة العصر، الآية ٣.

أي ما يذكرونه أحياناً بعنوانه الأصلي، مثلاً الصلاة، وهو العنوان الذي يطلق على هذا العمل، أو الإحسان إلى الناس، وهو اسم لهذا العمل، ونقول الزكاة اسماً لهذا العمل، وهكذا الصّوم، والجهاد، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، والإنفاق والصّدق، والصّداقة الخ... ولكن الأعمال، كما تعلمون، تختلف باختلاف الموضوعات، وباختلاف الظّروف الزّمانية، وبحسب أحوال الفرد. كيف؟ أي إنَّ أمراً ما في لحظة ما يكون واجباً عليك، وفي لحظة أُخرى يكون مستحباً، وفي لحظة ثالثة يكون المستحبُّ نفسه مختلفاً.

مثال: لنفرض إنَّك مدينٌ إلى دائن، مدينٌ ديناً شرعياً لدائنٍ شرعيٍّ يصر على تسديد دينه، قائلاً إنَّه محتاج ولا بدَّ لك من تسديد المبلغ، فتقول له: انتظر حتى أقيم الصلاة، ثم أدفع لك المبلغ. فيقول: لا انتظر. أعطني حقي ثم صلّ. أو لنفرض أنَّك وقفت تريد الصلاة، وإذا بمريض في بيتك في حالة حرجة، فماذا تفعل، فيما إذا لم يكن وقت الصلاة قد فات؟ فهل الصلاة في هذين الظرفين عمل صالح؟ تكون الصّلاة عملاً صالحاً إذا سددت دينك أوَّلاً ثم أقمت الصلاة.

ولهذا يستعمل القرآن تعابيره الخاصة، مثل العمل الصّالح، وهو العمل اللائق، ولياقة بالطَّبع مفهومٌ نسبيٌّ، متغيِّرٌ، يختلف باختلاف الأزمنة، ويختلف باختلاف الأشخاص.

فلنفرض أنَّ عدداً من الطلاب يريدون الذهاب للدرس،

فيخضعونهم إلى امتحان التّقدير للتعرّف إلى ميولهم واستعداداتهم، فمنهم من يميل إلى الآداب، ومنهم من يريد الرياضيات، وآخر الطبيعيات.

والعمل الصالح هو أن يسلك الطالب ذلك المسلك الذي يجد إنَّه أكثر استعداداً لتقبُّله من غيره. فإذا قال الذي استعداده للرياضيات إنَّه يريد دراسة الأدب، فلا يكون هذا عملاً صالحاً. العمل الصالح هو أن تسير على وفق استعدادك. وعلى ذلك فإنَّ آية ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ تبين أنَّ على الإنسان أن يعمل، وأنَّ عمله يجب أن يكون مناسباً، أي يجب أن يزن الظّروف التي يعيش فيها، فيختار العمل الذي يكون أصلح للنَّاس والمجتمع.

## ٥٧. ما هو معنى التَّواصي بالحقّ والتّواصي بالصّبر؟

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾[١]: وتواصوا من الوصية، والوصية في اللغة تعني العهد والإيصاء، وتكون في حياة الرجل أو بعد مماته، فهي الوصية.

أمير المؤمنين كثيراً ما يردِّد في نهج البلاغة «**أوصيكم عباد الله**» أي أعهد إليكم أيُّها الناس، وأنصحكم، ولا يعني إنَّكم أوصيائي من بعدي.

و«تواصوا» من أفعال المشاركة، من باب تفاعل، أي أن يقوم

(١) سورة العصر، الآية ٣.

بالفعل طرفان يتبادلان الفعل، ففي العربية إذا قلنا (ضرب). يكون هناك شخص ضارب، وشخص آخر (أو شيء آخر) مضروب. ولكن بقولنا تضارب الرجلان، تعني إنَّ كلاً من الرجلين كان ضارباً ومضروباً، أي إنَّ أحدهما ضربَ الآخر وبالعكس.

و»تواصوا» تعني التوصية المتقابلة، فما معنى التوصية المتقابلة؟ معناها مراقبة الناس، كأن أراقبك دائماً وألاحظ أعمالك، وألفت نظرك كلَّما لاحظتُ منك غفلةً: انتبه! وكذلك تقولها أنت لي ولغيري، وهكذا يتبادل الناس التحذير والتنبيه.

إنَّ الأفراد أشبه ما يكونون بالجنود الذين يحاربون في ساحة واحدة؟ فيحسون لو أنَّ أحداً من الأعداء انسلَّ إلى صفوفهم، لأنزلوا به ضربةً قاصمة.

إذن ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾ تقول: أيُّها الإنسان إنَّك في خسران ما لم تبن نفسك بالإيمان والعمل، لا منفرداً، بل عليك أن تسعى لبناء الآخرين معك، ويكون كل منكم عوناً للآخر.

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾: تعني إنَّ المؤمنين يملك أحدكم الآخر، ليس للمنفعة المادية، بل كل منهم ظهير للآخر في سبيل الحق.

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾: عليه أن يعرف أنَّه لكي يثابر ويستمر، لا بدَّ له من الصبر، ولا بدَّ له من المقاومة، ولا بدَّ له أن يتحمَّل الكثيرَ حتَّى تناله نُصرة الله.

إنَّني أوصيكم بالحقِّ دائماً وأرشدكم، وأنتم كذلك. إنَّه لمن

الخطأ أن ننظر إلى الوعظ على أنَّه مجرَّدُ مهنةٍ من المهن. ولا أعني بهذا إنَّ الحاجة منتفية لها. إنَّما نحن نريد من ينصحنا ويرشدنا. وهذا لا يتطلَّب حتماً أن يكون هذا شخصاً قضى سنواتٍ يدرس العربية، معمماً يصعد المنبر، ثم يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم يبدأ بالوعظ والإرشاد! ليس الأمر هكذا. علينا جميعاً أن نكون وعاظاً ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾ وليرشد بعضكم بعضاً إلى الحق.

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾: بالإضافة إلى التوصية بالحق، يوصي القرآن بالصبر على الشدائد: البقاء على العمل أصعب من العمل.

## ٥٨. كيف كان تشجيع الرسول ﷺ على طلب العلم؟

الحديث الأول هو: «**طلبُ العلم فريضةٌ على كلِّ مسلم**»[١]، وهذا تحريضٌ عام يشمل الرجلَ والمرأةَ دون استثناء. وهناك بعضُ كتب الشيعة، مثل كتاب (بحار الأنوار) حيث تُضاف كلمة (ومسلمة) على الحديث المذكور.

يقول هذا الحديث: إن فريضة العلم عامة، لا تختص بطبقة أو جنس. هناك ما يمكن أن يكون فرضاً على الشبان دون الشيوخ، أو على الحاكم دون المحكوم، أو على المحكوم دون الحاكم، أو من وظائف الرجل دون المرأة، مثل الجهاد وصلاة الجمعة المفروضتان على الرجل دون المرأة. أما هذه الفريضة التي اسمها

(١) بشائر الدرجات، ص٢٢.

فريضة العلم، فهي واجبة على كل مسلم دون استثناء.

والحديث الآخر هو«أُطلبوا العلم من المهد إلى اللحد»[١]. أي إن طلب العلم لا يقتصر على فصل أو زمان معين، فهو فريضة واجبة في كل وقت وزمان.

ومثلما نفى الحديث الأول اقتصار طلب العلم على جنس أو صنف أو طبقة من الناس، وجعله فرضاً على الجميع، يأتي هذا الحديث ليعمم طلب العلم من حيث الزّمان ليشمل جميع الأوقات.

والحديث الآخر يقول: «**أُطلُبوا العلم ولو بالصين**»[٢] وهذا إشارة إلى ضرورة طلب العلم حتى ولو كان في مكان بعيد من أرجاء الدنيا، مثل الصين.

والظاهر أن سبب ذكر الصين هو الاعتقاد يومئذ بأن الصين أبعد مكان في العالم كان الإنسان قادراً على الوصول إليه يومذاك، أو لعل الصين كانت حينذاك معروفة بأنَّها مهد العلوم والصناعات.

هنالك العديد من الأحاديث التي تشيد بفضل الهجرة في سبيل تحصيل العلم إلى أيَّ نقطة من نقاط العالم، بل هناك آية كريمة تقول: ﴿وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ﴾[٣].

(١) العلم والحكمة في الكتاب والسنة، الريشهري، ص٢٠٦.

(٢) العلم والحكمة في الكتاب والسنة، الريشهري، ص٢٠٥.

(٣) سورة النساء، الآية ١٠٠.

وقد فسر ذلك بالهجرة في طلب العلم، وجاء في حديث معتبر: «**لو علمتم ما في طلب العلم لطلبتموه ولو بسفك المهج وخوض اللّجج**»[١].

والحديث الرابع من أحاديث الرسول ﷺ يقول: «**الحكمة ضالة المؤمن يأخذها أينما وجدها**»[٢] أو برواية أخرى: «**كلمة الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها**»[٣] الحكمة هي الموضوع المحكم المتقن المنطقي السليم يعني البحث عن الحقيقة، إنَّ كل قانون أو قاعدة تتفق مع الحقيقة، وليست صنيعة الوهم والتخيلات، فهي الحكمة.

## ٥٩. هل العلوم التي ندرسها اليوم لها أهمية من الناحية الإسلامية؟

لقد جرى الاصطلاح على القول: إنَّ هناك علوماً دينية وأخرى غير دينية، ويقصد بالعلوم الدينية تلك التي تدور مباشرة حول مسائل الدين الاعتقادية أو الأخلاقية أو العملية، أو تلك العلوم التي تعتبر مقدمة لتعلم المعارف الدينية وأحكامها، مثل الأدب العربي أو المنطق.

قد يظن بعضهم أن باقي العلوم الأخرى غريبة على الدين

(١) الكافي، ج ١، ص٣٥.
(٢) عوالي اللئالي، ج ٤، ص٨١.
(٣) بحار الأنوار، ج ٢، ص٩٩.

تماماً، وإن كل ما قيل في الإسلام في فضل العلم وثواب طلبه وأجره ينحصر بتلك العلوم التي اصطلحنا عليها بالعلوم الدينية، أو إذا أطلق الرسول ﷺ صفة الفريضة على العلم، فإنّه قصد بها تلك العلوم المذكورة.

الواقع إنَّ هذا ليس سوى مصطلح فحسب، ففي نظره، تنحصر العلوم الدينية بتلك المتون الدينية الأولى، أي القرآن وسنة الرسول ﷺ وأوصيائه، ففي صدر الإسلام، يوم لم يكن المسلمون قد تعرفوا إلى الإسلام بعد على خير وجه، كان من الواجب عليهم أن يبدأوا بتعلم تلك المتون الأوليَّة، ويومئذ لم تكن هناك علوم كعلوم الكلام والفقه والأصول والمنطق وتاريخ الإسلام وغيرها، إنما الحديث المنقول عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنَّما العلم ثلاثة: آية محكمة، وفريضة عادلة، وسنَّة قائمة**»[1]، فهو إنما كان ينظر إلى تكاليف المسلمين وأحوالهم يومذاك. ولكن المسلمين، بعد أن أتقنوا تلك المتون الأوليّة الأساس، اعتبروا العلم مطلقاً، بحكم القرآن وأحاديث الرسول ﷺ، فريضة مفروضة على المسلم، ومن ثم ظهرت علوم ودونت، وفي نظرة أخرى، كل علم ينفع المسلمين، ويحل عقدة من عقدهم يعتبر فريضة دينية وعلماً دينياً. ترى لماذا نعتبر النحو والصرف واللغة العربية من العلوم الدينية؟ أليس لأن فيها نفعاً وفائدة تتفق مع النظرة الإسلاميّة؟

(١) بقية الباحث عن زوائد مسند الحارث، الهيثمي، ص٣٦.

لماذا ندرس شعر امرئ القيس عن الحب وشعر أبي نوّاس عن الخمر باعتبار ذلك طلباً للعلم؟ ذلك لأنه ينفعنا في فهم لغة القرآن.

إذن، كل علم ينفع المسلمين وشؤونهم ولازم لهم، يعتبر من العلوم الدينية. فلو أخلص امرؤ نيته لخدمة الإسلام والمسلمين وتعلم علماً، لشمله الثواب والأجر اللذين قيلا لتحصيل العلم، ولكان ممن ينطبق عليهم الحديث «**وإنَّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم**»[1]. أما إذا لم تخلص نيته، فلا ثواب على تحصيل بأن يكون كل علم نافع للمجتمع الإسلامي ولازم له، علماً دينياً.

### ٦٠. ما هي شروط التعرف على القرآن الكريم؟

تحتاجُ معرفة القرآن إلى مقدِّمات وشروط نذكرها بإيجاز:

أحد الشروط الضروريّة لمعرفة القرآن: معرفة اللغة العربية. وكما لا يُمكن معرفة (أشعار) حافظ وسعدي، دون الإلمام باللغة الفارسيَّة، فإنَّ معرفة القرآن المكتوب باللغة العربية دون معرفة اللغة العربية أمر محال.

الشرط الآخر: هو الإلمام بتاريخ الإسلام، لأنَّ القرآن ليس مثل التوراة أو الإنجيل، إذا عُرِضَ كُلٌّ منهما (وبُلِّغ إلى الناس) مرَّة واحدة من قبل الرسول ﷺ (موسى وعيسى)؛ بل، إنَّ هذا الكتاب

(١) الكافي، ج ١، ص٣٤.

نزل طوال ٢٣ سنة من حياة الرسول الأعظمﷺ، من البعثة حتى الوفاة، وخلال الأوضاع المختلفة لتأريخ الإسلام المملوءة حركةً وثورة، ولهذا نُلاحظ هناك أسبابٌ لنزول آياتِ القرآن، وسبب النزول لا يُحدِّد معنى الآية؛ بل، وبالعكس فإنَّ معرفة سبب النزول، يُرشد ويؤثّر كثيراً في توضيح مضمونِ الآيات.

الشرط الثالث: هو الإلمام بكلمات وأقوال الرّسول الأعظمﷺ؛ فالرسولﷺ بنصّ القرآن، أوَّل مفسّر لهذا الكتاب؛ حيث جاء في القرآن: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[1].

ويقول في آية أُخرى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[2].

الرسول الأكرمﷺ - من نظرِ القرآن - بنفسه مبيّن ومفسِّر لهذا الكتاب، وما جاءنا من الرسولﷺ يُعيننا على تفسير القرآن.

أمَّا بالنسبة إلينا - نحن الشيعة - الذين نعتقد بالرسولﷺ والأئمَّة الأطهارعليهم السلام ونعتقد أنَّ ما كان للرسول من قبل الله، فقد نقلَهُ إلى أوصيائه المكرَّمين، فإنَّ الأحاديث المعتبرةَ التي وصلتْنَا من الأئمَّة، لها نفسُ اعتبار الأحاديث المعتبرة نفسها الواصلة من رسول الله؛ فإنَّ الروايات الموثَّقة من الأئمَّة، تساعدنا كثيراً في معرفة القرآن.

---

(١) سورة النحل، الآية ٤٤.

(٢) سورة الجمعة، الآية ٢.

### ٦١. وضّح تفسير القرآن بالقرآن؟

هناك نقطة لا بُدَّ أنْ نهتمّ بها في التحقيق حولَ القرآن، وهي أنْ نتعرَّف إلى القرآن بالاستعانة بالقرآنِ نفسه. والغرض من ذلك أنَّ مجموعة آيات القرآن تكوّن مع بعضها بناءً متراصّاً؛ ولكن لو أنَّنا أخذنا آيةً واحدةً من آيات القرآن، وقلنا إنَّنا نريد فهمَ هذه الآية فقط، يعتبر هذا أُسلوب خاطئ، وبالطبع يحتمل أنْ يكون فهمنا لتلك الآية فهماً صحيحاً، ولكنَّ هذا عملٌ مخالفٌ للاحتياط، فآيات القرآن تفسّر بعضها بعضاً؛ وكما قال بعضُ المفسِّرين الكبار، فإنَّ الأئمَّة الأطهار أيَّدوا هذا الأُسلوب من التفسير.

القرآن له أُسلوب خاصّ بنفسه في توضيح وبيانِ المسائل، ففي موارد كثيرة إذا أخذت آيةً واحداً من القرآن، دون عرضها على الآيات المشابهة، فإنَّها تأخُذُ مفهوماً يختلف كلّياً عن مفهوم الآية نفسها، إذا وضعتْ بجانبِ الآيات التي تُشابهها في المضمون.

### ٦٢. هل يمكن معرفة القرآن الكريم للإنسان العادي؟

إنَّ أوَّل سؤالٍ يطرح نفسه لدى التحقيق في موضوعات القرآن، هو: هل يمكن - أصلاً - معرفة القرآن؟ وهل هناك إمكانية التحقيق في القرآن؟ وهل يمكن التفكُّر والتدبُّر في موضوعات ومسائل القرآن؟ أم إنَّ هذا الكتاب لم يُعرض أساساً للمعرفة؟ بل فقط للتلاوة والقراءة والتبرُّك والتيمُّن وأخذ الثواب؟

القرآن يدعو المؤمنين، بل وحتى المخالفين بالتفكُّر في آياته، ويدعوهم بأنْ يتأمّلوا في آياته بدلاً عن صدّها وإنكارها.

يقول في خطابٍ مع المخالفين: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[1].

يقول في آيةٍ أُخرى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[2]. إنَّه كتابٌ مباركٌ مثمر أرسلناه إليك، لماذا؟ لم نرسله ليقبّلوه ويضعوه فوق الرفوف، بل أرسلناه ليفكّروا ويدبَّروا في آياته.

هذه الآيات وعشرات الآيات الأُخرى التي تؤكّد على تدبُّر القرآن، تجوّز وتؤيّد تفسير القرآن، ولكن ليس تفسيراً على الهوى والميل النفسي، بل على أساس الصدق والإنصاف، بعيداً عن الأغراض الشخصيَّة. عندما نتأمَّل في القرآن بإنصافٍ ومن دون غرض، فلا ضرورة لنا في إمكانية معرفة كُلِّ مسائله.

القرآن من هذه الجهة يشبه الطبيعة، فكم من أسرارٍ في الطبيعة لم تنكشف بعدُ، وليس هناك أملٌ في اكتشافها، في الظروف الحاليَّة، ولكنَّها سوف تُكشف في المستقبل.

وإضافة على ذلك، بالنسبة إلى معرفة طبيعة الإنسان، لا بُدَّ من مطابقة التفكُّر مع الطبيعة كيفما كانت.

---

(١) سورة محمد، الآية ٢٤.

(٢) سورة ص، الآية ٢٩.

القرآن أيضاً كتاب مثل الطبيعة لم ينزَّل لزمنٍ واحد، وإذا كان غير ذلك فقد كانوا يكتشفون غوامضها في الماضي، وكان هذا الكتاب السماوي يفقد جاذبيته وطراوته وتأثيره.

إنَّ الاستعداد للتدبُّر والتفكُّر، وكشف غوامض القرآن، موجود دائماً، وهذه نقطة وضَّحها النبي والأئمَّة (عليهم السلام)، في حديثٍ منقولٍ عن الرسولﷺ يقول فيه (ما معناه): «**مَثلُ القرآن مثل الشمس والقمر، يتحرَّك مثلهما باستمرار؛ أي إنَّه ليس ثابتاً ولا يبقى في مكانٍ واحد**»؛ وقالﷺ أيضاً: «**القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق**»[١].

في عيون أخبار الرِّضا، ننقل عن قول الإمام الرِّضا عليه السلام: «**أنَّه سئل الإمام الصادق عليه السلام: ما هو السرّ في بقاء القرآن على طراوته كُلَّما يُتلى أكثر، وكُلَّما يمضي عليه الزّمان زمناً أطول؟ فأجاب الإمام: «لأنَّ القرآن لم ينزل لزمانٍ دون زمان ولناسٍ دون ناس**»[٢].

لقد أوجده الله ليسبق الأفكار والأزمنة في أيِّ زمان، مع وجود الاختلافات الكثيرة، في المعلومات وأنواع التفكُّر ومدى اتساع الفكر، مع أنَّه يحوي مجهولاتٍ لقُرَّائِه في كُلِّ زمان، ولكنَّه يعرض

(١) هذه الجملة جاءت ضمن حديث طويل للرسول الأعظمﷺ في فضل القرآن - الكافي، ج٤، ص٣٩٩.

(٢) عيون أخبار الرضا، ج٢، ص٩٣.

مقداراً كبيراً من المعاني والمفاهيم، القابلة للإدراك، بحيث يشبع حاجة الزّمان.

### ٦٣. كيف يعرِّف القرآن نفسه؟

عندما نبحث عمَّا يشتمل عليه القرآن، من الأحسن أن نرى رأي القرآن عن نفسه وكيف يعرِّف نفسه؟ إنَّ أوَّل قصَّة يُصرِّح بها القرآن - لدى التَّعريف عن نفسه - إنَّ هذه الكلمات والجمل هي كلامُ الله. ويصرّح القرآن أنّه ليس من تعبير وإنشاء النّبي؛ بل، إنَّ النّبي يبيِّن - بإذنٍ من الله - ما يُلقى عليه بواسطة روح القدس جبرائيل.

والتوضيح الآخر الذي يعرضه القرآن في تعريف نفسه، هو توضيح رسالته التي هي عبارة عن هداية أبناء البشر، وإرشادهم للخروج من الظّلمات إلى النُّور: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[1].

ولا شكّ أنَّ الجهل والمجهولات من مصاديق هذه الظلمات، وأنَّ القرآن يُخرج البشر من هذه الظلمات، ويُدخلهم إلى أنوار العلم.

ولكن إذا كانت هذه الظلمات تنحصر في المجهولات، فكان الفلاسفة أيضاً يتمكَّنون من إجراء هذه المهمَّة، إلّا أنَّ هناك ظلمات أُخرى أخطر كثيراً من ظلمات الجهل، ولا يتمكَّن العلم من مقاومتها.

(١) سورة إبراهيم، الآية١.

ومن هذه الظلمات: حبّ المصلحة (الشخصية)، وحبّ الذات وهوى النفس، و... التي تُعتبر ظلمات فردية وخُلقيَّة.

وتوجد ظلمات اجتماعية مثل الظلم والتفرقة وغيرهما.

إنَّ لفظة (الظلم) مأخوذة من مادة (الظُلمة) وتبيّن نوعاً من الظلمة المعنويَّة والاجتماعية؛ وأنَّ القرآن وسائر الكتب السَّماوية تتعهَّد بالنضالِ من أجل رفع الظلمات؛ يقول القرآن مخاطباً موسى بن عمران عليه السلام ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[1].

هذه الظلمة هي ظلمة ظلم فرعون والفراعنة، والنُّور هو نور الحرية والعدالة؛ وإنَّ النقطة التي لاحظها المفسّرون هي أنَّ القرآن يذكر الظلمات دائماً بصيغة الجمع، ومع الألف واللَّام لكي تُفيد الاستغراق، وتشمل جميع أنواع الظّلمات؛ في الوقت الذي يذكر النُّور بصيغة الإفراد، ويعني أنَّ الصراط المستقيم طريقٌ واحدٌ لا غير، إلّا أنَّ طرق الضّلال والانحراف متعدّدة.

وبهذا الترتيب يبيّن القرآن هدفه وهو: تحطيم قيود الجهل والضلال والظلم، والفساد الخلقي والاجتماعي؛ وفي كلمةٍ واحدة: القضاء على الظلمات، والهداية نحو العدل والخير والنُّور.

(١) سورة إبراهيم، الآية ٥.